٥٥ – باب فضل الزهد في الدنيا والحث عَلَى التقلل منها وفضل الفقر

قَالَ الله تَعَالَى: {إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]، وقال تَعَالَى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٥ – ٤٦]، وقال تَعَالَى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ} [الحديد: ٢٠]، وقال تَعَالَى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ} [آل عمران: ١٤]، وقال تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الْدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ} [فاطر: ٥]، وقال تَعَالَى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ١ – ٥]، وقال تَعَالَى: {وَمَا هذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: ٦٤]

==========

قَالَ الله تَعَالَى (إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: صفة الحياة الدنيا، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها.

– قال ابن الجوزي: هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية.

– قال السعدي: هذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

(كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ) كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات، مختلط بعضها ببعض، قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كل لون.

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ) أي: مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، والانعام من الكلأ والتبن والشعير.

(حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أي: أخذت حسنها وبهجتها.

(وَازَّيَّنَتْ) أي: تزينت بالحبوب والثمار والازهار، وهو تمثيل لها بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب.

قال السعدي: أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ) أي: وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصلون لثمرتها وغلتها.

(أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا) أي: جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، إما ليلاً وإما نهاراً.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) أي: محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كالذي حصد بالمناجل.

(كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ) أي: كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الارض قبل ذلك.

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي: مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا، نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال.

قال الالوسي: وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالمواعظ.

هذا مثل ضربه الله تعالى للدنيا وزينتها وسرعة انقضائها.

قال ابن القيم: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفراً منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

وقال ابن عاشور: شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً.

وقال السمرقندي: ... فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان، فيظن أنه قد نال مقصده، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود، فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده، فيموت ويصير كأنه لم يكن.

وقال ابن عطية: ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

من فوائد الآية :

١. تحقير الله للدنيا.
٢. سرعة زوالها وانقضائها.
٣. أن من أكبر عيوب الدنيا سرعة انقضائها.
٤. أنه على العاقل أن يعمل بالدنيا للآخرة الباقية.
٥. الحذر من فتنة الدنيا.
٦. على العاقل أن يتأمل ويتدبر آيات القرآن الكريم التي تبين حقيقة الدنيا وأنها دار عبور لا دار مستقر.

وقال تَعَالَى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الْدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ) يا محمد للناس.

(مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) في زوالها وفنائها وانقضائها.

(كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ) أي كمطر أنزلناه من السماء.

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ) أي ما فيها من الحب فشبّ وحسُنَ، وعلاه الزهور والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله:

(فَأَصْبَحَ هَشِيماً) يابساً متفتتاً.

(**تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**) أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال.

(**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**) أي والله على كل شيء يريده من الإنشاء والإفناء والإحياء والإغناء والإفقار ونحو ذلك قادر ففي هذا: التزهيد في الدنيا وعدم الاغترار فهي سريعة الفناء والقضاء.

(**المالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي: المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ويتباهى بها على غيره.

ومن شأن الزينة: الزوال وعدم الثبات، وإضافتها إلى الحياة الدنيا يقتضي دناءتها، فلا تعلق قلبك بها تعلقا يصرفك عما ينفعك، وليكن اهتمامك بالأعمال الصالحة فهي التي يبقى ثوابها ويؤمل نفعها في الدارين.

وإنما كانا كذلك، لأن في المال- كما يقول القرطبي- جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً.

قال الماوردي: لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي {البنين} قوة ودفعاً فصارا زينة الحياة الدنيا.

قال الرازي: ... وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج إنتاجاً بديهياً أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض.

قال ابن الجوزي: هذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة.

(**والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**) وهي الأعمال الصالحات.

(**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا**) أجراً.

(**وَخَيْرٌ أَمَلاً**) أي: الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا.

واختلف العلماء في المراد بالباقيات الصالحات على أقوال:

القول الأول: الباقيات الصالحات هذه الكلمات: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونسبه بعض المفسرين للجمهور.

قال ابن عطية: وقال الجمهور هي الكلمات المأثور فضلها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ونسبه أيضاً ابن جزي والشنقيطي للجمهور.

لحديث أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) رواه الحاكم.

ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (خُذُوا جُنَّتَكُمْ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: " لَا جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهَا يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدَّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَات) رواه الحاكم.

القول الثاني: أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس.

القول الثالث: أن الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة كلها.

وهذا اختيار ابن جرير، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، والشنقيطي.

قال الإمام الطبري – رحمه الله – وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: هنّ جميع أعمال الخير، كالذي رُوي عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويُثاب، وإن الله عزّ ذكره لم يخصص من قوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) بعضاً دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله ﷺ.

ورجحه القرطبي فقال: وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا.

وقال عليّ ﷺ: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام.

من فوائد الآيات :

١. هذا مثل لحقارة الدنيا وسرعة زوالها واضمحلالها.

٢. التحذير من حبها وعشقها .

٣. مادام أن الدنيا زائلة فينبغي للإنسان أن يجعلها طريقاً للآخرة .

٤. أن الآخرة هي الباقية التي لا تزول.

٥. التحذير من التفريط بالأعمال الصالحة في هذه الدنيا.

٦. أن الدنيا مرحلة من المراحل يتزود منها للآخرة وليست للبقاء واللهو والغفلة.

٧. التحذير من زينة الحياة الدنيا.

٨. أن أعظم زينة الدنيا المال والبنون.

٩. أن المال محبوب للنفوس وهو أعظم الفتن.

١٠. أن المال والولد إذا لم ينفع ويعين على الطاعة فهو مضرة، كما هو حال كثير من الناس.

وقال تَعَالَى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) .

(**زُيِّنَ لِلنَّاسِ** ...) كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار.

اختلف العلماء من المزين، فقيل: هو الله تعالى.

كما قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا) رواه أبو داود والترمذي.

ووجه تزيين الله لها، ابتلاء واختباراً.

وقيل: المزين هو الشيطان.

قال القرطبي: تزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء، وتزيين الشيطان إنما هو بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أخْذِها من غير وجوهها.

والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهِم.

وقال في التسهيل: ولا تعارض بينهما فتزيين الله بالإيجاد والتهيئة للانتفاع، وإنشاء الجبلة على الميل إلى الدنيا، وتزيين الشيطان بالوسوسة والخديعة.

قال ابن عاشور: والتزيين تصيير الشيء زينا أي حسناً، فهو تحسين الشيء المحتاج إلى التحسين، وإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه، ولذلك سمي الحلاق مزيناً.

وقال امرؤ القيس: الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

(حُبُّ الشَّهَوَاتِ) الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه.

قال الشوكاني: والمراد بالناس: الجنس. والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده. والمراد هنا: المشتهيات عبر عنها بالشهوات، مبالغة في كونها مرغوباً فيها، أو تحقيراً لها؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية.

– قال الثعالبي: وفي ضمن ذلك توبيخٌ، والشهواتُ ذميمةٌ، واتباعها مُرْدٍ، وطاعتها مَهْلَكَةٌ، وقد قال ﷺ (حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمكَارِهِ) فَحَسْبُكَ أَنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِهَا، فمَنْ واقعها، خلص إلى النَّار.

قال صاحب الكشاف: وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها.

والثانية: أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء مذمومة من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير عنها.

قال القرطبي: واتباع الشهوات مردٍ وطاعتها مهلكة، وفي صحيح مسلم (حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات).

وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها.

وأن النار لا ينْجَى منها إلا بترك الشهوات وفِطام النفس عنها.

(مِنَ النِّسَاءِ) فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد.

وفتنة النساء من أعظم الفتن، وخاصة في هذه الأزمنة التي انتشرت فيها التبرج والاختلاط، وانفتح الإعلام، وأصبحت فتنة المرأة تعرض ليلاً نهاراً.

كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام قال (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء) متفق عليه

وقال ﷺ (... فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) متفق عليه.

ويكفي في فتنتها قوله ﷺ (إِنَّ المرأَةَ تُقبِلُ فِي صُورَةِ شَيطَانٍ، وَتُدبِرُ فِي صُورَةِ شَيطَان).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَاهُ: الْإِشَارَةُ إِلَى الهَوَى وَالدُّعَاءِ إِلَى الفِتنَةِ بِهَا، لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ مِنَ الميلِ إِلَى النِّسَاءِ وَالِالتِذَاذِ بِنَظَرِهِنَّ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِن، فهِيَ شَبِيهَةٌ بِالشَّيطَانِ فِي دُعَائِهِ إِلَى الشَّرِّ بِوَسوَسَتِهِ وَتَزيِينِهِ لَه.

قال سَعيدُ بنُ المسَيّبِ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: مَا يَئِسَ الشَّيطَانُ مِنَ شَيءٍ إلا أَتَاهُ مِن قِبَلِ النِّسَاءِ.

قال الرازي: قوله تعالى (من النساء) وإنما قدمهن على الكل لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ولذلك قال تعالى (خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا لّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) ومما يؤكد ذلك أن العشق الشديد المفلق المهلك لا يتفق إلا في هذا النوع من الشهوة.

وقال القرطبي: قوله تعالى (مِنَ النساء) بدأ بهِنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال.

قال رسول الله ﷺ (ما تركت بعدي فِتنةً أشدَّ على الرجال من النساء) أخرجه البخاريّ ومسلم.

(وَالْبَنِينَ) ليفتخر بهم، وللتكثر بهم، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم، والتفاخر والزينة.

وفي الحديث (الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة) أي: يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته، ويمتنع أبوه من الإنفاق في الطاعة خوف فقره، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته، وقد قال تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) وقيل لبعض النساك: ما بالك لا تبتغي ما كتب الله لك؟ قال: سمعاً لأمر الله، ولا مرحباً بمن عاش فتنني، وإن مات أحزنني. يريد قوله تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

(وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) أي: الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالباً الشهوات، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله.

القناطير: جمع قنطار وهو العُقدة الكثيرة من المال، أو المال الكثير الذي لا يحصى، والمقنطرة: المضعّفة، وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة، قاله الطبري.

ورجح القول بأن (المقنطرة) المضعفة: الثعلبي، والواحدي، وابن عاشور.

والمال فتنة عظيمة، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى، ويحمله أيضاً على الطغيان والبغي ، كما سيأتي في الأحاديث إن شاء الله .

(والخَيْلِ) سميت بذلك لأن صاحبها يختال إذا ركبها.

(الْمُسَوَّمَةِ) أي: المعلّمة، كما قال ابن عباس.

وفي المسومة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الراعية.

واختاره السمرقندي، وابن جزي، وابن عاشور.

قال ابن قتيبة: يقال: سامت الخيل، وهي سائمة: إذا رعت، وأسمتها وهي مسامة، وسومتها فهي مسوَّمة: إذا رعيتها.

والثاني: أنها المعلمة.

وبه قال ابن عباس، وبه قال قتادة، واختاره الزجاج (وفي معنى المعلمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها معلمة بالشية، وهو اللون الذي يخالف سائر لونها، روي عن قتادة. والثاني: بالكي، روي عن المؤرج. والثالث: أنها البلق، قاله ابن كيسان).

والثالث: أنها الحسان.

وإلى هذا القول ذهب عكرمة ومجاهد، ورجحه الطبري والسيوطي.

والرابع: أي المعدة للجهاد.

وهو مروي عن ابن زيد.

لكن هذا القول فيه نظر، لأن إعداد الخيل للجهاد في سبيل الله من أمور الدين، وليس من قبيل أمور الدنيا التي زينت للناس، فهذا القول فيه نظر بيّن.

ولهذا قال الطبري: وأما الذي قاله ابن زيد من أنها المعدة في سبيل الله، فتأويل من معنى المسومة بمعزل .

والراجح أن الأقوال الثلاثة الأولى كلها محتملة، لأن اللفظ يحتملها، وهذا ما اختاره القرطبي فقال: قلت: كل ما ذكر يحتمله اللفظ، فتكون راعية معدة حساناً معلمة لتعرف من غيرها.

(**وَالْأَنْعَامِ**) وهي جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم.

(و**الْحَرْثِ**) أي: الأرض المتخذة للغراس والزراعة.

قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتموّل به صنف من الناس؛ أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار، وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك، وأمّا الأنعام فيتموّل بها أهل البوادِي، وأمّا الحرث فيتموّل بها أهل الرساتيق.

فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتموّل، فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع.

(**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**) أي ما يُتَمتّع به فيها ثم يذهب ولا يبقى.

(**وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**) أي: حسن المرجع والمصير.

قال الشوكاني: قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) أي: ذلك المذكور ما يتمتع به، ثم يذهب، ولا يبقى، وفيه تزهيد في الدنيا، وترغيب في الآخرة.

وقال في التسهيل: قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) تحقير لها ليزهد فيها الناس.

وقال القاسمي: قوله تعالى (وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) أي: المرجع وهو الجنة، فينبغي الرغبة فيه دون غيره. وفي إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله، وتزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

وهذا منه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

من فوائد الآية :

١. حكمة الله في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات.

٢. أن عند الفتن يظهر الصادق من الكاذب.

٣. أن الدنيا دار ابتلاء.

٤. أنه لا يذم من أحب هذه الأمور على الوجه المشروع.

٥. تقديم الأشد فالأشد، ولهذا قدم فتنة النساء.

٦. عظم خطر فتنة البنين.

٧. وجوب الحذر من فتنة المال.

٨. أنه كلما كثر المال كلما ازدادت الفتنة.

٩. أن هذه الأشياء متاع في الدنيا زائل.

١٠. وجوب الاستعداد للآخرة لأنها هي الباقية.

١١. أن متاع الدنيا قليل ناقص منغص بالآفات.

١٢. التزهيد في التعلق بهذه الأشياء.

١٣. أن ما عند الله خير من هذه الدنيا.

وقال تَعَالَى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الْدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ) بالبعث والجزاء على الأعمال .

(حَقٌّ) أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقا، فتهيئوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع .

قال ابن كثير : أي المعاد كائن لا محالة .

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له .

قال ابن كثير : أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية .

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أي : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

قال الطبري : أي : ولا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأماني، ويعدكم من الله العدات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله.

من فوائد الآية :

١. أن الآخرة والقيامة حق .

٢. وجوب الإيمان باليوم الآخر والبعث .

٣. الحذر من الاغترار بالدنيا وفتنتها .

٤. التزهيد في الدنيا .

٥. الحذر من وسوسة الشيطان وتزيينه للدنيا والمعاصي .

وقال تَعَالَى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ) .

قال ابن كثير : يقول تعالى أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، أي صرتم من أهلها .

وقال القرطبي : أي شغلكم المباهات بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى متم ودفنتم في المقابر .

وقال ابن عاشور : أي شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به لأن اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمرٍ مهم .

وقال ابن القيم: كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في التكاثر المذموم.

قوله تعالى : (أَلْهَاكُمُ) أبلغ في الذم مما لو قال : شغلكم ، لعدم التلازم بين اللهو والاشتغال ؛ ذلك أن الإنسان قد يشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاه به ، بينما اللهو ذهول وإعراض .

عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: (يقول ابن آدم مالي مالي قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قال : (يقول العبد مالي مالي ، إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك ، فهو ذاهب وتاركه للناس) رواه مسلم .

وعن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : (لو كان لابن آدم وادياً من ذهب ، أحب أن له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، والله يتوب على من تاب) متفق عليه .

وعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : (يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر) متفق عليه .

من فوائد الآية :

١. التحذير من كل شيء يشغل عن الآخرة .

قال تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

٢. يجب على المسلم أن يعمل في هذه الدنيا الصالحات قبل هجوم الموت بغتة .

٣. التحذير من فتنة الدنيا .

٤. جاء في الحديث (اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك) .

٥. إذا مات الإنسان انقطع عمله .

وقال تَعَالَى (وَمَا هذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) في الحقيقة .

(إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعا، وتنقضي جميعا، ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران.

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب .

(وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ) فإنها دار :

(الحيوان) أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن كثير : أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد .

وقال البغوي : أي : الحياة الدائمة الباقية ، و(الحيوان) بمعنى الحياة ، أي : فيها الحياة الدائمة .

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) لما آثروا الدنيا على الآخرة .

قال ابن كثير : أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

وأما الأحاديث فأكثر مِنْ أن تحصر فننبّهُ بطرف منها عَلَى مَا سواه.

٤٥٦ – عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ (أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ أَبَا عبيدة بنَ الجرَّاح ﷺ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأتِي بِجِزْيَتِهَا، فَقَدِمَ بمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بقُدُومِ أَبِي عُبيْدَةَ، فَوَافَوْا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ رسولِ الله ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله ﷺ انْصَرفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رسولُ الله ﷺ حِيْنَ رَآهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟» فقالوا: أجل، يَا رسول الله، فقال: أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوالله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَط الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم) متفقٌ عَلَيْهِ.

٤٥٧ – وعن أَبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ (جلس رسولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فقال: «إنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

(**عَمْرُو بْن عَوْفٍ**) الأنصاريّ حليف بني عامر بن لؤيّ .

(**أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ أَبَا عبيدة بنَ الجرَّاح**) هو: عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال القرشيّ الفهريّ الصحابيّ الشهير، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة المتوفّى بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة، وله ثمان وخمسون سنة .

(**إِلَى الْبَحْرَيْنِ**) البلد المشهور بالعراق، وهي بين البصرة وهَجَر .

(**يَأتِي بِجِزْيَتِهَا**) الجزية بكسر الجيم، وسكون الزاي: ما يؤخذ ممن أهل الذمّة (يأتي بجزيتها) أي: بجزية أهلها، وكان غالب أهلها إذ ذاك المجوس .

(**فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بقُدُومِ أَبِي عُبيْدَةَ**) بمال من البحرين .

(**فَوَافَوْا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ رسولِ الله ﷺ**) أي: جاؤوا، فاجتمعوا عند صلاة الصبح معه؛ ليقسم بينهم ما جاء به أبو عبيدة؛ لأنَّهم أرهقتهم الحاجة، والفاقة التي كانوا عليها، لا الحرص على الدنيا، ولا الرغبة فيها .

(**فَتَنَافَسُوهَا**) التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه.

(**فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**) وفي الرواية الأخرى (وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُم) لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك.

١ – الحديث دليل على خطر الدنيا وفتنتها وزهرتها ونضرتها.

قال بن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها، ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالبا والفقير آمن من ذلك.

قال الحافظ رحمه الله: فِيهِ أَنَّ الْمُنَافَسَة فِي الدُّنْيَا قَدْ تَجُرّ إِلَى هَلَاك الدِّين.

وقال ابن عثيمين رحمه الله: صدق الرسول عليه السلام، هذا الذي أهلك الناس اليوم، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له، وهذا من الانتكاس، نسأل الله العافية.

٢ – أنَّ المنافَسةَ في الدُّنيا قد تَجُرُّ إلى هَلاكِ الدِّينِ.

قال القرطبي : ومعنى تلهيكم : تشغلكم عن أمور دينكم، وعن الاستعداد لآخرتكم .

٣-قوله (**فَوالله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**) فيه ما يدل على أن الفقر أقرب للسلامة ، والاتساع في الدنيا أقرب للفتنة ، فنسأل الله الكفاف والعفاف . (المفهم) .

٤-الحديث دليل على خطر فتنة المال ، وسيأتي الكلام على هذه الفتنة إن شاء الله .

٥-تهديد شديد لمن يمنع الزكاة الواجبة .

٦-فضل عظيم لمن رزق المال وأنفقه في وجوه الخير .

٧-أنَّ طَلَبَ العَطاءِ مِنَ الإمامِ لا غَضاضةَ فيه.

٨- البُشرى مِنَ الإمامِ لِأتباعِه، وتَوسيعُ أمَلِهم منه.

٩ - حسن خلق النبي ﷺ .

١٠ - فضل إدخال السرور والبشرى على الناس .

١١ - أن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر.

٤٥٨ - وعنه: أن رسول الله ﷺ قَالَ (إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإنَّ الله تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاء) رواه مسلم.

==========

الحديث تقدم شرحه (٧٠) .

وفيه التحذير من فتنة الدنيا .

وأن الإنسان مستخلف في هذه الدنيا هل يطيع أم لا .

وأن الدنيا دار ابتلاء واختبار .

أن أخطر فتن الدنيا فتنة النساء .

٤٥٩ - وعن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ قَالَ (اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشَ الآخِرَةِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

(**اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**) أي: لا عيش باق إلا عيش الآخرة.

١ - الحديث دليل على تحقير عيش الدنيا لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء.

في الدنيا موت :

قال تعالى (كل من عليها فان).

وفي الآخرة لا موت قال تعالى (وهم فيها خالدون).

في الدنيا هموم وأحزان:

وفي الآخرة لا أحزان ولا هموم: قال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ).

في الدنيا ينفد، وفي الآخرة لا ينتهي: قال تعالى (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ).

وقد قال الشاعر الزاهد:

لا تركننّ إلى القصور الفاخرة .... واذكر عظامك حين تمسي ناخِرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل .... يا رب إنّ العيشَ عيشُ الآخرة

وقال آخر:

وأنظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفنِ.

والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة).

٢-**قال الشيخ ابن عثيمين:** يستحب لمن رأى ما يعجبه في الدنيا أن يقول: لبيك لبيك في الجنة خير منك. ا.هـ

ورد عن النبي ﷺ أنه ذكر الله عز وجل بقوله " إن العيش عيش الآخرة "، أو " إن الخير خير الآخرة " في معرض رؤية ما يعجب من الدنيا، وفي معرض مواجهة الشدة والمشقة.

وذلك في الأحاديث الآتية:

الحديث الأول: عن أنس بن مالك ﷺ قال (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَإِذَا المهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالجُوعِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمهَاجِرَهْ، فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا) رواه البخاري ومسلم.

الحديث الثاني: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فَلَمَّا قَالَ: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، قَالَ: إِنَّمَا الْخَيْرُ خَيْرُ الْآخِرَةِ) رواه ابن الجارود في (المنتقى)، وابن خزيمة في صحيحه.

الحديث الثالث: عن مجاهد رحمه الله قال: (كان النبي ﷺ يظهر من التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

قال: حتى إذا كان ذات يوم والناس يصرفون عنه كأنه أعجبه ما هو فيه، فزاد فيها: لبيك إن العيش عيش الآخرة. قال ابن جريج: وحسبت أن ذلك يوم عرفة) رواه الإمام الشافعي في " الأم " (٢/ ١٧٠) قال: أخبرنا سعيد بن سالم، عن ابن جريج قال: أخبرني حميد الأعرج عن مجاهد به.

ومن طريق الشافعي رواه الإمام البيهقي في "معرفة السنن والآثار" (٧/ ١٣٦)، وفي السنن الكبرى وهذا حديث مرسل؛ إسناده.

الحديث الرابع: عن عبد الله بن الحارث أن النبي ﷺ حج على رحل فاهتز، فقال (لبيك إن العيش عيش الآخرة) رواه ابن أبي شيبة في (المصنف) والإمام أحمد في (الزهد).

وقد أخذ بهذه الأحاديث والمراسيل أهل العلم، فقالوا يستحب للمرء إذا رأى ما يعجبه أن يقول : اللهم إن العيش عيش الآخرة ، ليذكر نفسه بغربته في هذه الدنيا، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي سباه الشيطان عنها لما استزل أبانا آدم عليه السلام .

قال الإمام النووي رحمه الله: إذا رأى شيئاً يعجبه قال لبيك إن العيش عيش الآخرة. (شرح مسلم).

وقد بوب عليه الإمام البيهقي رحمه الله بقوله: باب كان إذا رأى شيئا يعجبه قال: لبيك إن العيش عيش الآخرة. انتهى من " السنن الكبرى " .

وقال أبو عبد الله المواق المالكي رحمه الله: إذا رأى – يعني النبي ﷺ شيئاً يعجبه يقول: لبيك إن العيش عيش الآخرة، فكان يقولها في حال الشدة والرخاء، وهكذا يقول كل من عرف الآخرة وحقر الدنيا وذمها " انتهى من " التاج والإكليل "

وأما الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقد ذكر ذلك في أكثر من موضع، قال: الرسول ﷺ كان إذا رأى شيئاً يعجبه من الدنيا يقول: (لبيكَ، إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة) لأن الإنسان إذا رأى ما يعجبُه مِن الدُّنيا رُبَّما يلتفت إليه فيُعرض عن الله، فيقول: (لبيك) استجابةً لله عزَّ وجلَّ، ثم يوطِّنُ نفسه فيقول: (إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة) فهذا العيش الذي يعجبك عيش زائل، والعيش حقيقة

هو عيش الآخرة، ولهذا كان من السُّنَّة إذا رأى الإنسانُ ما يعجبُه في الدُّنيا أن يقول: (لبيك، إن العيشَ عيشُ الآخرة) " انتهى من " الشرح الممتع "

وقال رحمه الله أيضاً: كان الرسول ﷺ إذا رأى ما يعجبه في الدنيا يقول: (لبيك! إن العيش عيش الآخرة) لتوجيه النفس إلى إجابة الله؛ لا إلى إجابة رغبتها، ثم يقنع النفس أيضاً: أني ما صددتك وأجبت الرب عزّ وجلّ إلا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة؛ والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) الزمر/١٥ " انتهى من (تفسير الفاتحة والبقرة) (٣/ ٢٣). وينظر أيضاً: (فتاوى نور على الدرب).

وقد قال الشاعر في الزهد:

لا تركننّ إلى القصور الفاخرة *** واذكر عظامك حين تمسي ناخِرة .

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل *** يا رب إنّ العيشَ عيشُ الآخرة. ... (الإسلام سؤال وجواب).

٣ – تعلق النبي عليه الصلاة والسلام بالآخرة .

٤–تزهيد النبي ﷺ بالدنيا الزائلة .

٥–الدنيا دار عبور للآخرة .

٦–زهد النبي ﷺ .

٤٦٠ – وعنه، عن رسول الله ﷺ قَالَ (يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيبْقَى عَمَلُهُ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

الحديث تقدم شرحه (١٠٤) .

وفيه الحرص على استغلال الدنيا بالعمل الصالح .

وأن العمل الصالح هو رفيقك في قبرك وآخرتك .

أن العبرة بالإيمان والعمل لا بالأحساب والأنساب .

كل ابن انثى سيموت .

٤٦١ – وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم.

==========

(يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ) أي: بأشدّهم تنعماً، وأكثرهم ظلماً .

(فَيُصْبَغُ) أي : يغمس .

(يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟) أي: فيما مضى من زمانك .

(وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ) أي: شدة، ومشقّةً، ومحنةً، لِمَا كان فيه من فاقة، وحاجة، وبليّة .

١-الحديث دليل على أن كل نعيم في الدنيا بالنسبة للكافر فإنه يذهب بغمسة واحدة .

فبعد أول غمسة في النار ينسى أنعم أهل الأرض - ممن ولد وفي فمه ملعقة من ذهب - رفاهيته ونعيمه طوال حياته، حالفاً بالله أنه لم ير خيراً قط.

٢-لما كان كل نعيم الدنيا وما فيها يُنسى، أو تذهب لذته بغمسة واحدة في نار جهنم، فعلام نبالغ في طلبنا للدنيا ونتقاتل عليها ونخوض في ملذاتها؟

٣- بَيانُ حَقارةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ لِلآخِرةِ.

٤-قال ابن القيم : لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ... فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجورها ولم يميلوا اليها، وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد،

٥- إشارةٌ إلى أنَّ العاقلَ مَن نَظَر في المآلِ، لا في عاجلِ الحالِ.

٦-الترغيب في نعيم الجنة الدائم .

٧-شدة عذاب جهنم .

٨-أن المؤمن يجد في الدنيا الآلام والأوجاع والفقر رفعة له وزيادة في الأجر ... فبعد أول غمسة في الجنة تذهب الهموم والغموم، والفقر والمرض، والابتلاء والشدائد، والظلم والقهر، والآلام والأحزان، ويحلف ذلك المبتلى المؤمن أنه لم ير بؤساً ولا شدة قط!

٩-نعيم الآخرة ينسي شدة الدنيا وفقرها، وعذاب الآخرة ينسي نعيم الدنيا ولذاتها.

٤٦٢ - وعن المُسْتَوْرِد بن شَدَّاد ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ) رواه مسلم.

==========

١-معنى الحَديثِ:

قال النووي : مَعْنَى الْحَدِيث : مَا الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَة فِي قِصَر مُدَّتهَا ، وَفَنَاء لَذَّاتهَا ، وَدَوَام الْآخِرَة ، وَدَوَام لَذَّاتهَا وَنَعِيمهَا ، إِلَّا كَنِسْبَةِ الْمَاء الَّذِي يَعْلَق بِالْأُصْبُعِ إِلَى بَاقِي الْبَحْر . (نووي)

وهذا التَّمثيلُ للتَّقريبِ إلى الأفهامِ؛ وإلَّا فالآخرةُ أعظَمُ وأجَلُّ مِن البحرِ؛ لأنَّ البحْرَ مهْما كان واسعًا فإنَّه مُتناهٍ، ونَعيمُ الآخرةِ باقٍ غيرُ مُتَناهٍ، ونَعيمُ الجنَّةِ للمؤمنينَ، وكذلكَ عَذابُ الكافرينَ.

٢-الحديث دليل على أن المسلم ينبغي له أن يزهد في الدنيا ويحرص على الآخرة .

٣-تحقيرُ الدُّنيا وشأْنِها.

قال ابن القيم: وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه.

فقال (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين.

فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ).

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في بالزهد في الدنيا:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ).

وقوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ).

٤-**قال ابن القيم** : لا تتمّ الرَّغْبَة فِي الْآخِرَة إِلَّا بالزهد فِي الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَقِيم الزّهْد فِي الدُّنْيَا إِلَّا بعد نظرين صَحِيحَيْنِ :

نظر فِي الدُّنْيَا وَسُرْعَة زَوَالهَا وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم الْمُزَاحمَة عَلَيْهَا والحرص عَلَيْهَا وَمَا فِي ذَلِك من الْغصَص والنغص والأنكاد وَآخر ذَلِك الزَّوَال والانقطاع مَعَ مَا يعقب من الْحَسْرَة والأسف فطالبها لَا يَنْفَكّ من هم قبل حُصُولهَا وهم حَال الظفر بهَا وغم وحزن بعد فَوَاتهَا فَهَذَا أحد النظرين .

النّظر الثَّانِي النّظر فِي الْآخِرَة وإقبالها ومجيئها وَلَا بُد ودوامها وبقائها وَشرف مَا فِيهَا من الْخَيرَات والمسرات والتفاوت الَّذِي بَينه وَبَين مَا هُنَا فهي كَمَال الله سُبْحَانَهُ (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأبقى) فَهِيَ خيرات كَامِلَة دائمة وَهَذِه خيالات نَاقِصَة مُنْقَطِعَة مضمحلة فَإِذا تمّ لَهُ هَذَانِ النظران آثر مَا يَقْتَضِي الْعقل إيثاره وزهد فِيمَا يَقْتَضِي الزّهْد فِيهِ .

٤٦٣ – وعن جابر ﷺ (أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُم يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدِرْهَم؟» فقالوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا، إِنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فقال: «فَوَاللهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُم) رواه مسلم.

قوله: «كَنَفَتَيْهِ» أيْ: عن جانبيه. وَ «الأَسَكُّ»: الصغير الأذُن.

==========

١-الحديثِ دليل على حَقارةِ الدُّنيا وهَوانِها على اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

قال القرطبي : ومعنى هوان الدنيا على الله: أن الله تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها؛ بل: جعلها طريقا موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنَّما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملكها في الغالب الكفرة والجهال، وحماها الأنبياء والأولياء والأبدال. وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى فقال: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ، وحسبك بها هوانا أن الله قد صغرها وحقرها، وذمها، وأبغضها وأبغض أهلها ومحبيها، ولم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود منها، والتأهب للارتحال عنها، ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي، عن النبي ﷺ أنه قال: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم أو متعلم .

٢- بَيانُ ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ مِن تَحذيرِ أُمَّتِه مِن الاغترارِ بالدُّنيا؛ لأنَّها تُنسِي الآخرةَ الَّتي هي دارُ القرارِ.

٣-ضرب الأمثال للناس بما يعقلونه يقرب المراد ويوضح القصد، ويؤكد الفهم، ويوقفهم على حقائق الأشياء.

٤-ينبغي على أهل العلم والدعاة تذكير الناس بحقارة الدنيا، وحثهم على الزهد فيها وتحذيرهم من الركون إليها.

٤٦٤ – وعن أَبي ذر ﷺ قَالَ (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِي ﷺ فِي حَرَّةٍ بِالمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ» قلت: لَبَّيْكَ يَا رسولَ الله. فقال: «مَا يَسُرُّنِي أنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضي عَلَيَّ ثَلاَثَةُ أيّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إلاَّ شَيْءٌ أرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إلاَّ أَنْ أقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هكذا وَهَكَذَا وَهكَذَا» عن يَمِينِهِ وعن شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ سَارَ، فقال: «إنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا» عن يمينِهِ وعن شِمَالِهِ ومِنْ خَلْفِهِ «وَقَلِيلٌ مَاهُمُ).

==========

(عن أَبي ذر ﷺ) الصحابي الجليل .

(قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِي ﷺ فِي حَرَّةٍ بِالمَدِينَةِ) قال ابن الأثير: الحرّة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سُودٌ كثيرة.

وقال في "الفتح": الحرّة: مكان معروف بالمدينة، من الجانب الشماليّ منها، وكانت به الوقعة المشهورة في زمن يزيد بن معاوية، وقيل: الحرّة الأرض التي حجارتها سُود، وهو يَشْمَل جميعَ جهات المدينة التي لا عمارة فيها.

(فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ) الجبل المعروف .

(مَا يَسُرُّنِي أنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضي عَلَيَّ ثَلاَثَةُ أيّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إلاَّ شَيْءٌ أرْصُدُهُ لِدَيْنٍ) أي: أُعِدّه، أو أحفظه ، أي: لقضاء دين واجب عليَّ؛ لأن قضاء الدين مقدّم على الصدقة المندوبة .

(إلاَّ أَنْ أقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هكذا وَهَكَذَا وَهكَذَا» عن يَمِينِهِ وعن شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) وفي رواية (هكَذَا حَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ، وَهَكَذَا عَنْ شِمَالِهِ) .

(ثُمَّ سَارَ، فقال: «إنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ) المراد الإكثار من المال، والإقلال من ثواب الآخرة، وهذا في حقّ مَن كان مكثراً، ولم يتصف بما دلّ عليه الاستثناء بعده من الإنفاق.

(إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا» عن يمينِهِ وعن شِمَالِهِ ومِنْ خَلْفِهِ) أي : إلا من صرف الناس وأنفقه يميناً وشمالاً .

١–الحديث دليل على فضل الصدقة .

وجاء في لفظ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ (انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِس فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: هُمُ الْأَخْسَرُونَ، وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ... "هُمُ الأكثَرُونَ أَمْوَالاً، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَلِيل مَا هُمْ) .

معنى (إلا من قال هكذا) أي: إلا من تصدق من الأكثرين في جميع الجوانب، وهو كناية عن كثرة التصدّق، فذاك ليس من الأخسرين.

٢–الحديث حث على الصدقة في وجوه الخير، وأنَّه لا يقتصر على نوع من وجوه البرّ، بل ينبغي له أن ينفق في كلّ وجه من وجوه الخير.

٣–أن من كان أكثر الناس مالاً، ثم لم يَقُم بحقّه من أداء الزكاة، وغيره، فإنه يكون من الأخسرين .

٤–تهديد شديد لمن لم يؤد زكاة ماله .

٣–قوله **(إِلَّا أَنْ أقولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ)** يؤخذ منه أن نفي محبة المال مقيَّدة بعدم الإنفاق، فيلزم محبة وجوده مع الإنفاق، فما دام الإنفاق مستمِرًّا لا يكره وجود المال، وإذا انتفى الإنفاق ثبتت كراهية وجود المال، ولا يلزم من ذلك كراهية حصول شيء آخر، ولو كان قدر أُحُدٍ، أو أكثر مع استمرار الإنفاق.

٥–فضل من أعطي مالاً وأنفقه في وجوه الخير .

٦–الحديث دليل على وجوب سداد الدين الذي على الإنسان بسرعة ومن غير مماطلة .

٧-زهد النبي ﷺ في الدنيا .

٨-العمل للآخرة .

٤٦٦ – وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ) متفقٌ عَلَيْهِ، وهذا لفظ مسلم.

وفي رواية البخاري (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَل مِنْهُ) .

==========

(**فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ**) بفتح الخاء أي: الصورة.

١-الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن ينظر في أمور الدنيا – من مال وجاه – إلى من هو تحته، وأن لا ينظر إلى من فوقه .

وقد قال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

قال المباركفوي : (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ) أَيْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا (وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ) فِيهَا (فَإِنَّهُ) أَيْ فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ لَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقُ (أَجْدَرُ) أَيْ أَحْرَى (أَنْ لَا تَزْدَرُوا) أَيْ بِأَنْ لَا تَحْتَقِرُوا وَالِازْدِرَاءُ الِاحْتِقَارُ فَكَانَ أَصْلُهُ الِازْتِرَاءَ فَأُبْدِلَتْ التَّاءُ بِالدَّالِ (نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ).

فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا اِسْتَصْغَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ فَكَانَ سَبَبًا لِمَقْتِهِ، وَإِذَا نَظَرَ لِلدُّونِ شَكَرَ النِّعْمَةَ وَتَوَاضَعَ وَحَمِدَ. فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى تَجَمُّلِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَمِصْدَاقُهُ: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا). ... (التحفة).

وقال القرطبي: أي: اعتبروا بمن فضلتم عليه في المال، والخلق، والعافية، فيظهر عليكم ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه على ذلك، فتقومون بحق النعمة، وذلك بخلاف ما إذا نظر إلى ما فضل عليه غيره من ذلك؟ فإنَّه يضحل عنده ما أنعم الله عليه به من النعم، ويحتقرها، فلا يحسبها نعماً، فينسى حق الله فيها، وربما حمله ذلك النظر إلى أن تمتد عينه إلى الدنيا فينافس أهلها، ويتقطع لحسرة فوتها، ويحسد أهلها، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة.

وقال النووي: قَالَ اِبْن جَرِير وَغَيْره: هَذَا حَدِيث جَامِع لِأَنْوَاعٍ مِنْ الْخَيْر؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إِذَا رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسه مِثْل ذَلِكَ، وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْده مِنْ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى، وَحَرَصَ عَلَى الِازْدِيَاد لِيَلْحَق بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبهُ. هَذَا هُوَ الْمَوْجُود فِي غَالِب النَّاس. وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُور الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونه فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِ، فَشَكَرَهَا، وَتَوَاضَعَ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْر.

وقال السعدي: وقد أرشد ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوي لشكر نعم الله، وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه، فإنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق، وخَلْق وخُلُق، فيحمد الله على ذلك حمداً كثيراً، ويقول: الحمد لله الذي أنعم علي وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، موسع عليه رزقه.

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتلوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام وهو معافى من ذلك، مسربل بالعافية. ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتلوا ببلاء أفظع من ذلك، بانحراف الدين، والوقوع في قاذورات المعاصي، والله قد حفظه منها أو من كثير منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومنة الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة – نعمة القناعة وراحة القلب – كثيراً من الأغنياء.

ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالما كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة، فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء، فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي ﷺ لم يزل شكره في قوة ونمو، ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى.

ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك، فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله، ويفقد شكره، ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله رباً ومدبراً، وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين. (شرح جوامع الأخبار).

وقال رحمه الله: ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع (للحياة السعيدة) استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور. ... (الوسائل المفيدة).

٢–في العمل بهذا التوجيه النبوي — النظر في أمور الدنيا إلى من هو أقل منه – فوائد:

أولاً: القيام بشكر الله على نعمة وعدم احتقارها.

ثانياً: القناعة.

عن عون بن عبد الله قال: صحبت الأغنياء فلم يكن أحدا أطول غما منى إن رأيت أحداً أحسن ثيابا منى وأطيب ريحاً منى فصحبت الفقراء فاسترحت.

٣ – الحديث دليل على وجوب شكر الله على نعمه، وقد تقدمت مباحث الشكر.

٤–من أعظم أسباب تحقيق الشكر : تطبيق هذا التوجيه النبوي .

ومن الأسباب أيضاً : التضرع إلى الله بأن يوفقه لشكر نعمته.

قال تعالى عن سليمان (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وعلم النبي ﷺ معاذاً أن يقول (اللهم إني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

ومن الأسباب : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله عن شكر نعمه هل قام بها أم كفر.

قال تعالى (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال ابن كثير: أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ماذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

ومن الأسباب : أن يعلم العبد أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

٥–سبب النهي عن النظر إلى من هو فوقه في أمور الدنيا :

أ-أن ذلك يؤدي إلى احتقار نعمة الله عليه.

ب-وهو سبب في عدم شكر نعمة الله.

ج-ولأن في النظر للمترفين تؤدي إلى عدم القناعة.

٦ - الحذر من التسخط من نعم الله.

٧ - علو منزلة الشكر لله.

٨ - فضل مجالسة المساكين والفقراء، لأنها تؤدي إلى شكر الله.

قال ابن رجب : إن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه ، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

٤٦٧ - وعنه، عن النبي ﷺ قَالَ (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) رواه البخاري.

==========

(**تَعِسَ**) هو بكسر العين ، ويجوز بفتحها ، أي سقط ، والمراد هنا : هلك . [قاله الحافظ ابن حجر]

وقال في موضع آخر : " هو ضد سَعِدَ ، أي شقي " .

وفي رواية (**وانتكس**) أي : انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له .

١-الحديث دليل على ذم الحرص على الدنيا .

٢- أن من كانت الدنيا أكبر همه أصبح عبداً لها ، يحب من أجلها ، ويسخط من أجلها .

قال ابن تيمية : لِهَذَا كَانَ الشّرك فِي هَذِه الْأمة " أخْفى من دَبِيب النَّمْل ". وَفِي " الصَّحِيح " عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ (تعس عبد الدِّرْهَم تعس عبد الدِّينَار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وَإِذا شيك فَلَا انتقش إِن أعطي رَضِي وَإِن منع سخط) ... فَسَماهُ النَّبِي ﷺ عبد الدِّرْهَم وَعبد الدِّينَار وَعبد القطيفة وَعبد الخميصة وَذكر مَا فِيهِ دُعَاء وخبرًا وَهُوَ قَوْله: " تعس وانتكس وَإِذا شيك فَلَا انتقش " والنقش إِخْرَاج الشَّوْكَة من الرجل والمنقاش مَا يخرج بِهِ الشَّوْكَة ... وَهَذِه حَال من إِذا أَصَابَهُ شَرّ لم يخرج مِنْهُ وَلم يفلح لكَونه تعس وانتكس فَلَا نَالَ الْمَطْلُوب وَلَا خلص من الْمَكْرُوه ... وَهَذِه حَال من عبد المَال وَقد وصف ذَلِك بِأَنَّهُ إِذا أعطي رَضِي وَإِن منع سخط كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمِنْهُم من يَلْمِزك فِي الصَّدقَات فَإِن أعْطوا مِنْهَا رَضوا وَإِن لم يُعْطوا مِنْهَا إِذا هم يسخطون) فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

وَهَكَذَا حَال من كَانَ مُتَعَلقاً برئاسة أَو بِصُورَة - وَنَحْو ذَلِك من أهواء نَفسه - إِن حصل لَهُ رَضِي وَإِن لم يحصل لَهُ سخط فَهَذَا عبد مَا يهواه من ذَلِك وَهُوَ رَقِيق لَهُ إِذْ الرّقّ والعبودية فِي الْحَقِيقَة هُوَ رق الْقلب وعبوديته فَمَا اسْترق الْقلب واستعبده فَهُوَ عَبده.

وَلِهَذَا يُقَال:

العَبْد حر مَا قنع ... وَالْحر عبد مَا طمع

وَقَالَ الشَّاعِر:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ... وَلَو أَنِّي قنعت لَكُنْت حرًّا

وَيُقَال: الطمع غل فِي الْعُنُق قيد فِي الرجل فَإِذا زَالَ الغل من الْعُنُق زَالَ الْقَيْد من الرجل. (العبودية)

٣- أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية ، وهي الشوكة .

فقوله (**تعس وانتكس** ...) يحتمل أن يكون خبراً عن حال هذا الرجل ، وأنه تعاسة وانتكاس ، وعدم خلاص من الأذى ، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله ، لأنه لا يهتم إلا للدنيا ، فدعا عليه أن يهلك وأن لا يصيب من الدنيا شيئاً ، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه .

٤-قوله (**عبد الدينار**) سماه عبداً لكونه هو المقصود بعمله ، فكل من توجه بقصده لغير الله ، فقد جعله شريكاً لله في عبوديته ، كما هو حال الأكثر .

٥-أن عبد الله هو الذي يرضيه ما يرضي الله ، ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب الله ورسوله .

٦-من كانت الدنيا أكبر همه وقع في المشكلات .

٤٦٨ - وعنه ﷺ قَالَ (لَقَدْ رَأَيْتُ سَبعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا منهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ: إِمَّا إِزارٌ، وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أعنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْن، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ) رواه البخاري.

==========

(**أهل الصفة**) الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر وقد سرد أسماءهم أبو نعيم في الحلية فزادوا على المائة.

(**رداء**): هو الذي يستر أعالي البدن فقط.

(**إزار**): هو ما يستر النصف الأسفل من البدن، من السرة إلى الساقين.

(**كساء**): قطعة قماش واحدة يلتف بها الإنسان.

(**فيجمعه**) أي: يجمع الرجل ذلك الثوب من الكساء أو الإزار بيده؛ لئلا يفترق أحد طرفيه من الآخر.

(**كراهية أن ترى عورته**) أي: في نظر غيره أو حال صلاته.

١-بَيانُ صَبْرِ الصَّحابةِ الأوائلِ على الشَّدائدِ والفقْرِ حُبًّا في اللهِ ورَسولِه، وتَفضيلًا للإسلامِ على الكفْرِ.

٢-زهد أهل الصفة وانقطاعهم للعلم والجهاد في سبيل الله.

٣-فضل الصحابة وتضحيتهم .

٤-حقارة الدنيا .

٥-حرص المؤمن على ستر عورته.

٦-فضيلة الصحابة ﷺ، وصبرهم على الفقر، وضيق الحال، والاجتزاء من اللباس على ما يستر العورة، وقد أثابهم الله على ذلك فاستخلفهم في الأرض، ومكن لهم دينهم وبدلهم من بعد فقرهم غنى، ومن بعد خوفهم أمنا مع ما أعد الله لهم في الآخرة من الثواب في الجنة.

فائدة :

معنى الصُّفَّة:

الصُّفَّة: هي مكان في مؤخر المسجد النبوي، مظلل، أُعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل .

عددهم :

قال القرطبي : أهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين، وكانوا نحوًا من أربعمائة رجلٍ، وذلك أنهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله ﷺ، وما لهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صفة في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ، فقيل لهم: أهل الصُّفَّة .

وقال ابن تيمية : لم يكن جميع أهل الصُّفَّة يجتمعون في وقتٍ واحدٍ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلى مكانٍ آخر يتيسر له، ويجيء ناس بعد ناسٍ، فكانوا تارةً يقلون، وتارةً يكثرون، فتارةً يكونون عشرةً أو أقل، وتارةً يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارةً يكونون ستين وسبعين، وأما جملة من أوى إلى الصُّفَّة مع تفرقهم، فقد قيل: كانوا نحوَ أربعمائةٍ من الصحابة، وقد قيل: كانوا أكثر من ذلك .

تعفف أهل الصُّفَّة عن التسول:

قال ابن تيمية : لم يكن في الصحابة – لا أهل الصُّفَّة ولا غيرهم – من يتخذ مسألة الناس ولا الإلحاف في المسألة بالكدية والشحاذة، لا بالزنبيل ولا غيره صناعةً وحرفةً؛ بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك .

٤٦٩ – وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ) رواه مسلم.

==========

١ – قيل في معنى الحديث : أَنَّ كُلّ مُؤْمِن مَسْجُون مَمْنُوع فِي الدُّنْيَا مِنْ الشَّهَوَات الْمُحَرَّمَة وَالْمَكْرُوهَة، مُكَلَّف بِفِعْلِ الطَّاعَات الشَّاقَّة، فَإِذَا مَاتَ اِسْتَرَاحَ مِنْ هَذَا، وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّه تَعَالَى لَهُ مِنْ النَّعِيم الدَّائِم، وَالرَّاحَة الْخَالِصَة مِنْ النُّقْصَان. وَأَمَّا الْكَافِر فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَّلَ فِي الدُّنْيَا مَعَ قِلَّته وَتَكْدِيره بِالْمُنَغِّصَاتِ، فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَاب الدَّائِم، وَشَقَاء الْأَبَد. ... (نووي)

وقال المناوي: لأنه ممنوع من شهواتها المحرمة فكأنه في سجن، والكافر عكسه فكأنه في جنة.

وقيل: كالسجن للمؤمن في جنب ما أعد له في الآخرة من الثواب والنعيم المقيم، وكالجنة للكافر في جنب ما أعد له في الآخرة من العقوبة والعذاب الأليم.

قال الزمخشري: أراد أنها للمؤمن كالسجن في جنب ما أعد له من المثوبة، وللكافر كالجنة في جنب ما أعد له من العقوبة. وقيل: إن المؤمن صرف نفسه عن الملاذ وأخذها بالشدائد، فكأنه في السجن، والكافر أمرحها في الشهوات، فهي له كالجنة.

وقال ابن القيم: (الدنيا سجن المؤمن) فيه تفسيران:

أحدهما: أن المؤمن قيد إيمانه عن المحظورات، والكافر مطلق التصرف.

والآخر: أن ذلك باعتبار العواقب، فالمؤمن لو كان أنعم الناس، فذلك بالإضافة إلى مآله في الجنة كالسجن، والكافر عكسه؛ فإنه لما كان أشد الناس بؤسا، فذلك بالنسبة إلى النار جنته، فائدة المبالغة في المدح.

وحكى القرطبي عن سهل الصعلوكي الفقيه الخراساني، وكان ممن جمع رياسة الدين والدنيا: أنه كان في بعض مواكبه ذات يوم؛ إذ خرج عليه يهودي من إيوان حمام، وهو بثياب دنسة وصفة نجسة، فقال: أنتم تزعمون أن نبيكم قال: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»، وأنا عبد كافر وترى حالي، وأنت مؤمن وترى حالك؟! فقال له على الفور: إذا صرت غداً إلى عذاب الله كانت هذه الجنة لك، وإذا صرت أنا إلى النعيم ورضوان الله، صار هذا سجني، فعجب الخلق من فهمه وسرعة جوابه.

٢ – الدنيا مهما عظُم نعيمها وطابت أيامها، وزَهَت مساكنها، فإنها للمؤمن بمنزلة السجن؛ لأن المؤمن يتطلَّع إلى نعيمٍ أفضلَ وأكمل وأعلى، وأما بالنسبة للكافر، فإنها جنته؛ لأنه يُنعَّم فيها وينسى الآخرة.

٣ – المؤمن في أفعاله يسير وفق شرع الله لا يخرج عنه.

٤ – المؤمن يصبر على ما يلاقيه من أذى ومصائب وآلام في سبيل الله.

٥ – المؤمن يضع الخشية من الله دائما نصب عينيه.

٦ – المؤمن لا يغتر بما يستدرج الله به الكافرين من كثرة الإنعام عليهم.

٧ – لا ينبغي للمؤمن أن يقضي شهواته بما حرم الله عليه بل يتمتع بالدنيا بما أحل الله له.

٨ – البون شاسع بين مصير المؤمنين في الجنة والكافرين في النار .

وَعَنِ اِبْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ (أَخَذَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: – كُنْ فِي اَلدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ – وَكَانَ اِبْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ اَلصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ اَلْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِك، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) أَخْرَجَهُ اَلْبُخَارِي.

==========

(**أَخَذَ**) أمسك.

(**بِمَنْكِبِي**) المنكب: مجتمع رأس العضد والكتف.

(**كأنك غريب**) أي: مثل الغريب، والغريب هو البعيد عن وطنه.

(**أو عابر سبيل**): قيل: أو للتخيير، وقيل بمعنى: بل.

١–الحديث دليل على الحث على الزهد في الدنيا وقصر الأمل.

والزهد في الدنيا: هو ترك مالا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

قال ابن القيم: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ .... (الفوائد)

٢–**قال النووي** في شرح الحديث: معناه: لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بماء يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله . (نووي)

وقال ابن رجب : وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أنْ يكون حالُه فيها على أحد حالين:

أ–إما أنْ يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ، هَمُّه التزوُّد للرجوع إلى وطنه.

ب– أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة، بل هو ليله ونهارَه، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة.

فلهذا وصّى النَّبيُّ ﷺ ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين.

فأحدهما: أنْ ينْزِل المؤمن نفسه كأنَّه غريبٌ في الدنيا يتخيَّلُ الإقامةَ، لكن في بلد غُربةٍ، فهوَ غيرُ متعلِّقِ القلب ببلد الغربة، بل قلبُه متعلِّقٌ بوطنه الذي يَرجِعُ إليه، وإنّما هو مقيمٌ في الدنيا ليقضي مَرَمَّةَ جهازه إلى الرجوع إلى وطنه.

قال الفضيلُ بن عياض: المؤمن في الدنيا مهمومٌ حزين، همُّه مَرَمَّةُ جهازه.

ومن كان في الدنيا كذلك، فلا همَّ له إلا في التزوُّد بما ينفعُه عندَ عودِه إلى وطنه، فلا يُنافِسُ أهلَ البلدِ الذي هو غريبٌ بينهم في عزِّهم، ولا يَجْزَعُ من الذلِّ عندهم.

قال الحسن: المؤمن في الدُّنيا كالغريب لا يجزع من ذُلها، ولا يُنافِسُ في عِزِّها، له شأنٌ، وللناس شأن.

الحال الثاني: أن يُنْزِلَ المؤمنُ نفسَه في الدنيا كأنَّه مسافرٌ غيرُ مقيم البتة، وإنَّما هو سائرٌ في قطعِ منازل السَّفر حتّى ينتهي به السفرُ إلى آخره، وهو الموت.

ومن كانت هذه حالَه في الدنيا، فهمَّتُه تحصيلُ الزاد للسفر، وليس له هِمَّةٌ في الاستكثار من متاع الدنيا.

ولهذا أوصى النَّبيُّ ﷺ جماعةً من أصحابه أن يكونَ بلاغُهم من الدُّنيا كزادِ الرَّاكب.

قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحتَ؟ قال: ما ظنُّك برجل يرتَحِلُ كلَّ يومٍ مرحلةً إلى الآخرة؟

وقال الحسن: إنَّما أنت أيامٌ مجموعة، كلّما مضى يومٌ مضى بعضُك.

ففي هذا الحديث التزهيد في الدنيا، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتخذها وطناً يركن إليها، وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر.

وقد زهد الله في الدنيا وبيّن خستها وحقارتها:

فقال تعالى (ما عندَكم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ).

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ).

وقال تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

وقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

وقال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا).

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار .

قال ابن رجب: فأمَّا الزُّهد في الدُّنيا، فقد كثُر في القُرآن الإشارة إلى مدحه، وإلى ذمّ الرغبة في الدُّنيا.

قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ).

وقال تعالى في قصة قارون (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ) إلى قوله (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنيا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ).

وقال (قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

وقال حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنَّه قال لقومه (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنيا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقد ذمَّ الله مَنْ كان يُريد الدُّنيا بعمله وسعيه ونيَّته.

وقال رحمه الله: وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل.

وقد اتَّفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنّه قال (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وكان النَّبيُّ ﷺ يقول (مالي وللدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها).

ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنَّه قال لهم: اعبُروها ولا تَعمُرُوها.

ورُوي عنه أنَّه قال: من ذا الذي يبني على موجِ البحر داراً، تلكُمُ الدُّنيا، فلا تتَّخذوها قراراً.

ودخل رجلٌ على أبي ذرٍّ، فجعل يُقلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذرٍّ، أين متاعُكم؟ قالَ: إنَّ لنا بيتاً نوجه إليه، قالَ: إنَّه لابدَّ لك من مَتاع ما دمت ها هنا، قالَ: إنَّ صاحب المنْزل لا يدعُنا فيه.

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا له: إنَّا نرى بيتَك بيتَ رجلٍ مرتحلٍ، فقال: أمرتحلٌ؟ لا، ولكن أُطْرَدُ طرداً.

وكان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يقول: إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

قال بعضُ الحكماء: عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا مولية عنه، والآخرة مقبلةٌ إليه، يشتغلُ بالمدبرة، ويُعرِض عن المقبلة.

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته: إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظَّعَن، فكم من عامرٍ موثَّق عن قليلٍ يَخْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُغتَبِطٍ عما قليل يَظعَنُ، فأحسنوا – رحمكم الله – منها الرِّحلة بأحسن ما بحضرتكم مِنْ النقلة، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التقوى.

وقال: ابنَ آدم إنَّما أنت بين مطيتين يُوضعانِكَ، يُوضِعُك النهار إلى الليل، والليل إلى النهار، حتى يُسلِمَانِك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابنَ آدم خطراً.

وقال: الموتُ معقود في نواصيكم والدنيا تُطوى مِنْ ورائكم.

قال داود الطائي: إنَّما الليلُ والنهارُ مراحلُ يَنْزِلُها الناسُ مرحلةً مرحلةً حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإنِ استطعت أن تُقدِّم في كلِّ مرحلة زاداً لِما بَينَ يديها، فافعل، فإنَّ انقطاع السَّفر عن قريب ما هو، والأمر أعجلُ من ذلك، فتزوَّد لسفرك، واقض ما أنتَ قاضٍ من أمرك، فكأنَّك بالأمر قد بَغَتك.

وكتب بعضُ السَّلف إلى أخٍ له: يا أخي يُخَيَّلُ لك أنَّك مقيم، بل أنتَ دائبُ السَّيرِ، تُساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت موجَّهٌ إليك، والدنيا تُطوى من ورائك، وما مضى من عمرك، فليس بكارٍّ عليك حتى يَكُرَّ عليك يوم التغابن.

قال بعضُ الحكماء: كيف يفرحُ بالدنيا من يومُه يَهدِمُ شهرَه، وشهرُه يهدِمُ سنَتَه، وسنته تَهدِمُ عُمُرَه، وكيف يفرح من يقوده عمرُه إلى أجله، وتقودُه حياتُه إلى موته.

وقال الفضيلُ بنُ عياض لرجلٍ: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال فأنت منذ ستين سنة تسيرُ إلى ربِّك يُوشِكُ أنْ تَبلُغَ، فقال الرجل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقال الفضيلُ: أتعرف تفسيرَه تقول: أنا لله عبد وإليه راجع، فمن عَلِمَ أنَّه لله عبد، وأنَّه إليه راجع، فليعلم أنَّه موقوفٌ، ومن علم أنَّه موقوف، فليعلم أنَّه مسؤول، ومن عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ، فليُعِدَّ للسؤال جواباً، فقال الرجل:

فما الحيلةُ؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحسِنُ فيما بقي يُغفَرُ لك ما مضى فإنّك إنْ أسأتَ فيما بقي، أُخِذْتَ بما مضى وبما بقي.

قال الحسن: لم يزل الليلُ والنهار سريعين في نقص الأعمار، وتقريبِ الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قَدِموا على ربِّهم، ووردوا على أعمالهم، وأصبح اللَّيلُ والنَّهارُ غضَّيْنِ جديدين، لم يُبلِهُما ما مرَّا به، مستعدِّين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى.

وكتب الأوزاعيُّ إلى أخٍ له: أما بعد، فقد أُحيطَ بك من كلّ جانب، واعلم أنَّه يُسارُ بك في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فاحذرِ الله، والمقام بين يديه، وأنْ يكونَ آخر عهدك به، والسَّلام.

ترحَّل من الدُّنيا بزادٍ من التُّقى

فعُمْرُكَ أيامٌ وهُنَّ قَلائِلُ ... (جامع العلوم والحكم).

٣-فضائل الزهد في الدنيا :

أولاً: راحة للقلب والبدن.

قال الحسن: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن.

ثانياً: سبب لمحبة الله.

كما في الحديث الآتي (ازهد في الدنيا يحبك الله) .

وفي هذا الحديث يقول الإمام الغزالي-رحمه الله فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى.

ثالثاً: أن الله زهدنا فيها.

فقال تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع).

وقال سبحانه (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً).

قال القرطبي: متاع الدنيا منفعتها والاستمتاع بلذاتها، وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له.

رابعاً: سبب لهوان المصائب.

قال علي: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات .

٤-من علامات الزهد أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق.

قال ابن رجب : وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، فإنَّ من عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحق خشيةَ الذَّمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ، وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود: اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله، وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

٥-قال ابن القيم: يحسن إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب.

والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابة الداعي، فيستحضر في نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، فإنه إن تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد.

وقال رحمه الله: ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك، وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً.

٦-قال ابن القيم: والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ..).

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجل خطراً، وهي دار البقاء.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ..

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه في مقامه والله الموفق لمن يشاء. (طريق الهجرتين) .

٧-امتثل ابن عمر وصية رسول الله ﷺ قولاً وعملاً.

أما قولاً، فإنه كان يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

وأما في الفعل: فقد كان ﷺ على جانب كبير من الزهد فيها والقناعة منها باليسير الذي يقيم صلبه ويستر بدنه، وما سوى ذلك يقدمه لغده.

قال جابر بن عبد الله: ما رأينا أحداً إلا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلا عبد الله بن عمر.

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر.

٨-الحث على قصر الأمل ، وهو العلم بقرب الرحيل .

قال ابن القيم : وهو من أنفع الأمور للثبات على الطاعات، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره وتدارك الفائت، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة. فكلما قصر الأمل جد العمل، لأن العبد يقدِّرُ أنه يموت اليوم فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل، وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه، فقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر فقال له: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

وقال ابن رجب: وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل. (جامع العلوم)

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل).

قال الفضيل: من الشقاء طول الأمل، ومن النعيم قصر الأمل.

قال ابن القيم : يكفي في قصر الأمل:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

وقوله تعالى (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

ثم قال رحمه الله: وقصر الأمل بناؤه على أمرين:

تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ..... وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها.

٤٧١ – وعن أَبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فقال: يَا رسولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فقال: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبّك اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبّك النَّاسُ) حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة.

==========

١–الحديث دليل على أن الزهد سبب لمحبة الله تعالى.

لأن الإنسان لا يزهد في الدنيا حقيقة إلا من أيقن بالجنة.

قال الغزالي رحمه الله : فجعل الزهد سببا للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن من محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى.

٢–وقد تقدم فضائل الزهد في حديث ابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

٣–وقد ذكر العلماء أموراً تعين على الزهد في الدنيا:

أولاً: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها.

ثانياً: النظر في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات.

ثالثاً: أن ذلك سبب لراحة البدن والقلب.

كما قال الحسن: الزهد في الدنيا يريح البدن والقلب.

٤–الحديث دليل على فضل الاستغناء عما في أيدي الناس .

لأن النبي ﷺ جعله سبباً لمحبة الناس لك.

لأنهم منهمكون على محبتها بالطبع، فمن زاحمهم عليها أبغضوه، ومن زهد فيها وتركها لهم أحبوه.

وقد جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعاً (شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني.

وقال الحسن: لا تزال كريماً على الناس، أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك.

وقال أيوب السختياني: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم.

وكان عمر يقول في خطبته: إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه.

وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بما سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

قال ابن رجب رحمه الله: وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، فمن سأل الناس ما بأيديهم، كرهوه وأبغضوه، لأن المال محبوب لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه، كرهوه لذلك.

وجاء في الحديث قوله ﷺ (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ).

قال السعدي: وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقاً حراً من رق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر (ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشْرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك) فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن من الخلق، وعن تعلق القلب بهم، سبب قوي لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا.

وقال ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

٥-فضائل العفة؟

أولاً: أنّها من خصال أهل الإيمان:

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ. والَذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين).

ثانياً: أنّها من أسباب الفوز بظلّ الله يوم القيامة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَال (سبعةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه). متفق عليه

ثالثاً: أنّ أهل العفّة ينالون عون الله.

ففي سنن التّرمذي وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثلاثةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَاف) رواه الترمذي.

رابعاً: أن النبي ﷺ كان يدعو بها.

عن ابن مسعود قال (كان النبي ﷺ يدعو: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

خامساً: أنّها من أسباب سعادة المرء.

كما قال بعض السّلف: والله للذّة العفّة أعظم من لذّة الذّنب.

وقال الغزالي: ولا معيشة أهنأ من العفّة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت.

قال حكيم: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وأكساه العفاف.

عن وهب بن منبه أنّه قال: الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفّة.

وقال الحسن: لا تزالُ كريماً على الناس ما لم تَعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك استخفُّوا بكَ، وكرهوا حديثك، وأبغضوك.

وقال أيوب السَّختياني: لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى تكونَ فيه خصلتان: العفَّةُ عمَّا في أيدي الناس، والتجاوزُ عمّا يكون منهم.

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيِّدُ أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بما سادهم؟ قالوا: احتاجَ الناسُ إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

قال ابن القيم: أعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

٤٧٢ – وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ (لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ) رواه مسلم.

==========

(مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا) من لذاتها وشهواتها .

(يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي) أي: يتقلّب ظهراً لبطن من الجوع .

(مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ) وهو رديء التمر .

١–في الحديث بيانُ ما كانتْ عليه حالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أوَّلِ الأمرِ مِن شِدَّةِ الحالِ وخُشونةِ العَيشِ والجهدِ.

٢–زهد النبي ﷺ من الدنيا .

٢–الحث على الزهد في الدنيا والتقلل منها والاقتداء بالنبي ﷺ .

٣–تذكير الناس بالنعم التي هم فيها والحث على شكر الله عليها .

٤٧٣ – وعن عائشة رضي الله عنها، قالت (تُوفي رسول الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

(شَطْرُ شَعير) أيْ: شَيْءٌ مِنْ شَعير،، كَذَا فَسَّرَهُ التُّرْمذيُّ.

(فَكِلْتُهُ فَفَنِي) بكسر النون؛ أي: فرغ، ونفِد، تعني أنها ما زالت تأكل منه قبل أن تكيله، فلما كالته نفِد، وفرغ .

١–بيان ما كان عليه أزواج النبيّ ﷺ من قلّة المعيشة، وصبرهنّ على ذلك.

٢–الحث على الزهد في الدنيا ، فإنها لو كانت لها قيمة لكان احق بها رسول الله ﷺ .

٣–فضل عائشة في نقلها أحوال النبي ﷺ ومعيشته في بيته .

٤ – بيان معجزة للنبيّ ﷺ في تكثيره طعام عائشة – رضي الله عنها –، فكانت تأكل منه، وتنفق على المحتاجين حتى طال عليها الوقت، فكالته، فنفد.

٥–التوكل على الله في جميع الأمور .

٦–استحباب الاقتصاد في النفقة .

٥–قولها **(فكلته ففني)** جاء عند أخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر (أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً فيأتيها بنوها فيسألون الأدم فتعمد إلى العكة فتجد فيها سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتت النبي ﷺ فقال لو تركتها ما زال قائماً) .

وقد استشكل هذا النهي مع الأمر بكيل الطعام وترتيب البركة على ذلك كما تقدم في البيوع من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ (كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه).

وأجيب : بأن الكيل عند المبايعة مطلوب من أجل تعلق حق المتبايعين فلهذا القصد يندب، وأما الكيل عند الإنفاق فقد يبعث عليه الشح فلذلك كره ويؤيده: ما أخرجه مسلم: عن جَابِر (أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَامْرَأَتُهُ وَضَيْفُهُمَا حَتَّى كَالَهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ لَكُم).

قال القرطبي: سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل والله أعلم الالتفات بعين الحرص مع معاينة ادرار نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة، ويستفاد منه أن من رزق شيئاً أو أكرم بكرامة أو لطف به في أمر ما فالمتعين عليه موالاة الشكر ورؤية المنة لله تعالى ولا يحدث في تلك الحالة تغييراً والله اعلم.

٤٧٤ – وعن عمرو بن الحارث أخي جُوَيْرِيّة بنتِ الحارِث أُمِّ المُؤْمِنِينَ، رضي الله عنهما، قَالَ (مَا تَرَكَ رسولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِينارًا، وَلاَ دِرْهَمًا، وَلاَ عَبْدًا، وَلاَ أَمَةً، وَلاَ شَيْئًا إِلاَّ بَغْلَتَهُ الْبَيضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلاَحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لاِبْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً) رواه البخاري.

==========

(عن عمرو بن الحارث أخي جُوَيْرِيّة بنتِ الحارِث أُمِّ المُؤْمِنِينَ) صحابيّ قليل الحديث، بقي إلى ما بعد الخمسين .

١–بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الزهد في الدنيا والتقلل منها.

٢–الاقتداء بالنبي ﷺ بالتقلل من الدنيا .

٣–لم يوص النبي ﷺ وصية المال لأحد؛ لأنه لا يورث، وأوصى بأشياء أخرى.

٤–المؤمن يأخذ من الدنيا بقدر ما يعينه على الآخرة، ويقتدي بالرسول –صلى الله عليه وسلم– في ذلك.

٥–جواز اتخاذ البغال، وركوب البغل.

٦–جواز إنزاء الحمير على الخيل .

لكن أخرج الإمام النسائي من حديث ابن عباس قال (والله ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء دون الناس إلا بثلاثة أشياء، فإنه أمرنا أن نسبغ الوضوء، ولا نأكل الصدقة، ولا ننزي الحمر على الخيل) .

وفي رواية (إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون) .

فظاهر هذا الحديث النهي عن التخصيب المذكور، ولكن العلماء فهموه على أن النهي إنما هو للحض على تكثير الخيل.

قال ابن حجر : ... والنبي ﷺ على بغلة بيضاء ... واستدل به على جواز اتخاذ البغال وإنزاء الحمر على الخيل، وأما حديث ... إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون ... فقال الطحاوي: أخذ به قوم فحرموا ذلك ولا حجة فيه، لأن معناه الحض على تكثير الخيل. (الفتح)

٤٧٥ – وعن خَبابِ بن الأَرَتِّ ﷺ قَالَ (هَاجَرْنَا مَعَ رسول الله ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُل منْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ: مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ ﷺ قُتِلَ يَوْمَ أُحُد، وَتَرَكَ نَمِرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلاَهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأسُهُ، فَأَمَرَنَا رسول الله ﷺ أَنْ نُغَطِّي رَأسَهُ، وَنَجْعَل عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الإِذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا) متفقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُه: «أَيْنَعَتْ» أَيْ: نَضِجَتْ وَأَدْرَكَتْ. وَقَوْلُه: «يَهْدِبها» هُوَ بفتح الياءِ وضم الدال وكسرها لغتان: أَيْ: يَقْطُفهَا وَيَجْتَنِيهَا، وهذه استعارة لما فتح الله تَعَالَى عليهم من الدنيا وتمكنوا فِيهَا.

==========

(هَاجَرْنَا مَعَ رسول الله نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى) أي: نطلب بهجرتنا مرضاة الله تعالى، لا عَرَضًا من الدنيا وقال في "الفتح"؛ أي: جِهَة ما عنده، من الثواب، لا جهة الدنيا.

(فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ) وهو موافق لقوله تعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

وفي لفظ (فوجب أجرنا على الله) قال القرطبيّ رحمه الله: قوله: "فوجب أجرنا على الله" أي: بما وعد به من هاجر بقوله الصدق، ووعده الحقّ، لا بالعقل؛ إذ لا يجب على الله تعالى شيء عقلًا، ولا وضعًا.

(فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُل منْ أَجْرِهِ شَيْئًا) أي: من عَرَض الدنيا؛ يعني: أنه لم يوسّع عليه الدنيا، ولم يُعجّل له شيء من جزاء عمله .

(مِنْهُمْ: مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ) أي: من هؤلاء الذين لم يأكلوا من أجرهم شيئًا مصعب بن عُمير ، وكان يُكنى أبا عبد الله، من السابقين إلى الإسلام، وإلى هجرة المدينة.

قال الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله: أسلم قديمًا، والنبيّ ﷺ في دار الأرقم .

قال البراء ﷺ: أول من قدم علينا مُصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان القرآن، أخرجه البخاريّ .

(قُتِلَ يَوْمَ أُحُد) أي: استُشهد في غزوة أُحد .

(وَتَرَكَ نَمِرَةً) النَّمِرَةُ : كِساءٌ مُلَوَّنٌ مِنْ صوف .

(فَكُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلاَهُ) لكونها قصيرة، لا تُوَاري جسده كلّه .

(فَأَمَرَنَا رسول الله ﷺ أَنْ نُغَطِّي رَأسَهُ) وفي لفظ (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَعُوهَا مِمَّا يَلِي رَأْسَهُ) .

(وَنَجْعَل عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الإِذْخِرِ) حَشيشة طيّبة الرائحة، تُسَقّف بها البيوت فوق الخشب .

(وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدُبُهَا) بفتح أوله وسكون ثانيه أي: يقطفها.

قال النوويّ رحمه الله: وهذا استعارة لما فَتح الله عليهم من الدنيا.

١–فضل الهجرة مع رسول الله ﷺ .

٢– فضل الصحابة حيث هاجروا مع الرسول ﷺ وتركوا الديار والأوطان .

٣–أهمية الإخلاص في العمل ، وخاصة الهجرة والجهاد .

٤–فضل مصعب بن عمير .

٥-بيان ما كان عليه السلف، من الصدق في وصف أحوالهم.

٦-أن الصبر على مكابدة الفقر، وصعوبته من منازل الأبرار.

٧-تواضع خباب .

٨-إذا ضاق الكفن عن الميت، ولم يتيسر السابغ، ستر به رأسه وما طال من جسده، وما بقي منه مكشوفاً جُعل عليه شيء من الإذخر أو غيره من الحشيش.

٤٧٦ – وعن سهلِ بن سعد الساعدي ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

==========

١-الحديث دليل على الزهد في الدنيا لحقارتها عند الله .

٢-لو كانت الدنيا تزن وتساوي عند الله عز وجل جناح بعوضة فقط، لمنع الرب سبحانه الماء عن الكفار، ولهلك الكفار كلهم لكفرهم به، لكنها أحقر وأقل من ذلك.

جاء قي (التحفة) والمعنى أنه لو كان لها أدنى قدر (ما سقى كافرا منها) أي من مياه الدنيا (شربة ماء) أي يمتع الكافر منها أدنى تمتع، فإن الكافر عدو الله والعدو لا يعطى شيئا مما له قدر عند المعطي، فمن حقارتها عنده لا يعطيها لأوليائه كما أشار إليه حديث : إن الله يحمي عبده المؤمن عن الدنيا كما يحمي أحدكم المريض عن الماء .

٣-من علامات الزهد في الدنيا معرفة حقارة الدنيا وسرعة زوالها واضمحلالها، ومعرفة الجنى وبقائها ودوامها .

٤-على المسلم الحق أن يحقّر ما حقّره الله، ويعظم ما عظمه الله .

٥-وجوب بغض الكافر .

٦-من علامات الإيمان حب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله .

فائدة :

قال أبو معاوية الأسود: الخلق كلهم -برُّهم وفاجرهم- يسعون في أقل من جناح ذباب!

فقال له رجل: ما أقل من جناح الذباب؟ قال: الدنيا. "الحلية" (٨/ ٢٧٣).

٤٧٧ – وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول (أَلاَ إنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعالِمًا وَمُتَعَلِّمًا) . رواه الترمذي، وقال: «حديث حسنٌ».

==========

(إنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ) أَيْ : مَبْعُوضَةٌ مِنْ اللَّهِ لِكَوْنِهَا مُبْعَدَةً عَنْ اللَّهِ .

(مَلْعُونٌ مَا فِيهَا) أَيْ : مِمَّا يُشْغِلُ عَنْ اللَّهِ .

١-الحديث دليل على الزهد في الدنيا ، لأنها حقيرة عند الله .

٢-الحديث دليل على أنه ينبغي على المسلم أن يستغل الدنيا بالطاعات والأعمال الصالحات ، لأنها لا تستحق أن ينشغل بها عن الدار الآخرة .

فالدنيا :

ما كان لله وفي طاعة الله وفي الخير، وما كان يعين على طاعة الله؛ فليس بمذموم .

وما كان في سبيل الكفر والضلال، والإعانةِ على المعاصي فهذا هو المذموم.

فالدنيا مذمومة كلها ما شغلت العبد عن الله، والعمل الصالح، والدار الآخرة، وما نفع منها لأمر الآخرة وأعان عليه فهو المحمود بقدره .

قال ابن رجب : فالدُّنيا وكلُّ ما فيها ملعونة، أي: مُبعدَةٌ عن الله؛ لأنَّها تَشغلُ عنه، إلاَّ العلمَ النَّافع الدَّالَّ على الله، وعلى معرفته، وطلب قُرْبِه ورضاه، وذكر الله وما والاه ممَّا يُقَرِّبُ مِنَ الله، فهذا هو المقصودُ مِنَ الدُّنيا، فإنَّ الله إنَّما أمرَ عبادَه بأنْ يتَّقوه ويُطيعوه، ولازِمُ ذلك دوامُ ذكره، كما قال ابن مسعود: تقوى الله حقّ تقواه أنْ يُذكَرَ فلا يُنسى . وإنَّما شرعَ الله أقام الصَّلاةِ لذكره، وكذلك الحج والطَّواف. وأفضلُ أهل العبادات أكثرُهم ذكراً لله فيها، فهذا كلُّه ليس مِنَ الدُّنيا المذمومة، وهو المقصودُ من إيجاد الدُّنيا وأهلها، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) .

وقال رحمه الله : واعلم أنَّ الذمَّ الوارد في الكتاب والسُّنَّة للدُّنيا، ليس هو راجعاً إلى زمانها الذي هو اللَّيل والنَّهار، ولا إلى مكان الدُّنيا الذي هو الأرض، التي جعلها الله لبني آدم مِهاداً وسكناً، فإنَّ ذلك كُلَّه مِنْ نعمة الله على عباده، وإنَّما الذَّمُّ راجعٌ إلى أفعال بني آدمَ الواقعةِ في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقعٌ على غير الوجه الذي تُحمَدُ عاقبتُه، بل يقعُ على ما تضرُّ عاقبتُه أو لا تنفع". ا.هـ

وقال ابن القيم -رحمه الله-: الدنيا في الحقيقة لا تُذَمُّ، وإنما يُتوجه الذمُّ إلى فعل العبد فيها، ولكن لَمَّا غلبتْ عليها الشهوات والحظوظ، والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مَبْنَى الآخرةِ ومزرعتُها، وفيها اكتسبتْ النفوسُ الإيمان، ومعرفةَ الله ومحبتَه وذكرَه ابتغاء مرضاته، وخيرُ عيش ناله أهل الجنة في الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلاً ا.هـ.

٣-كل شيء في الدنيا لغير الله فهو ممحوق ومنزوع البركة .

وخرَّج الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعاً قال: (الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلا ما ابتُغِيَ به وجه الله) . وخرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا موقوفاً.

قال ابن تيمية: مَن أكل مِن الطعام أو أخذ مِن الشراب أو المنكوح فوق حاجته أضره، وهنا يظهر معنى حديث النبي ﷺ عند الترمذي: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم". فدل هذا على أن كل مخلوق وبالٌ عليك إن تعلقت به إلا ما كان لله وفي الله.

وقال : وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ مَضَرَّتَهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِ؛ فَصَارَتْ الْمَخْلُوقَاتُ وَبَالًا عَلَيْهِ إلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ كَمَالٌ وَجَمَالٌ لِلْعَبْدِ؛ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ}. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ؛ وَغَيْرُهُ .

وقال رحمه الله : فَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَكُونُ طَاعَةً لِلَّهِ وَعِبَادَةً وَعَمَلًا صَالِحًا فَهُوَ بَاطِلٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ وَإِنْ نَالَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ رِئَاسَةً وَمَالًا .

٤-قال أبو سليمان الداراني : كلُّ ما شغلك عن اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ، فهو مشؤوم .

٥-قال القرطبي : ويكفيك من ذلك قوله ﷺ (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم أو متعلم) .

ثم قال : ... المباح لعنه من الدنيا ما كان منها مبعداً عن الله، وشاغلاً عنه، كما قال بعض السلف: كل ما شغلك عن الله تعالى من مال وولد فهو عليك مشؤوم، وهو الذي نبه الله على ذمه بقوله تعالى (إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُم وَتَكَاثُرٌ فِي الأَموَالِ وَالأَولادِ) وأما ما كان من الدنيا يقرب إلى الله تعالى، ويعين على عبادة الله تعالى، فهو المحمود بكل لسان، والمحبوب

لكل إنسان، فمثل هذا لا يسب، بل يرغب فيه، ويحب، وإليه الإشارة بالاستثناء حيث قال: إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالم أو متعلم . (المفهم)

٤٧٨ – وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا). رواه الترمذي، وقال: «حديثٌ حسنٌ».

==========

(**لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ**) هِيَ الْبُسْتَانُ وَالْقَرْيَةُ وَالْمَزْرَعَةُ . وَفِي النِّهَايَةِ : الضَّيْعَةُ فِي الْأَصْلِ الْمَرَّةُ مِنْ الضَّيَاعِ ، وَضَيْعَةُ الرَّجُلِ مَا يَكُونُ مِنْهُ مَعَاشُهُ كَالصَّنْعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ اِنْتَهَى . وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ : الضَّيْعَةُ الْعَقَارُ وَالْأَرْضُ الْمُغَلَّةُ .

(**فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا**) أَيْ : فَتَمِيلُوا إِلَيْهَا عَنْ الْأُخْرَى .

١–الحديث دليل على التحذير من الانهماك والاشتغال بالدنيا اشتغالاً يشغل عن الآخرة والاستعداد لها .

وقد بوّب البخاري باباً على هذا المعنى في الصحيح فقال: باب مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الِاشْتِغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ، أَوْ مُجَاوَزَةِ الْحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.

ثم ذكر حديثاً: ... ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الْحَرْثِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لاَ يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلاَّ أُدْخِلَهُ الذُّلُّ.

قال العيني: المقصود الترغيب والحث على الجهاد.

فالمراد من الحديث الاشتغال بالدنيا عن الآخرة .

ولذلك جاء : عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، أَوْ دَابَّةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَة).

فهذا الحديث دليل على جواز اتخاذ الضيعة والقيام عليها.

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الغراس، واتخاذ الضياع مباح، وغير قادح في الزهد، وقد فعله كثير من الصحابة.

وقد ذهب قوم من المتزهدة: إلى أن ذلك مكروه وقادح.

ولعلّهم تمسكوا في ذلك بما قد خرَّجه الترمذي من قوله ﷺ (لا تتخذوا الضيعة، فتركنوا إلى الدنيا) .

والجواب: أن هذا النهي محمول على الاستكثار من الضياع والانصراف إليها بالقلب الذي يفضي بصاحبه إلى الركون للدنيا. فأما إذا اتخذها غير مستكثر، وقلَّل منها، وكانت له كفافًا وعفافًا فهي مباحة، غير قادحة في الزهد، وسبيلها كسبيل المال الذي استثناه النبي ﷺ بقوله: (إلا من أخذه بحقه، ووضعه في حقه) فأمَّا لو غرس، أو اتخذ الضيعة ناويًا بذلك معونة المسلمين، وثواب ما يؤكل ويتلف له منها، ويفعل بذلك معروفًا، فذلك من أفضل الأعمال، وأكرم الأحوال، ولا بُعْد في أن يقال: إن أَجْرَ ذلك يعود عليه أبدًا دائمًا، وإن مات وانتقلت إلى غيره، ولولا الإكثار لذكرنا فيمن اتخذ الضياع من الفضلاء، والصحابة جملة من صحيح الأخبار. (المفهم)

وقال المباركفوري رحمه الله: (فترغبوا في الدنيا) أي: فتميلوا إليها عن الأخرى ، والمراد: النهي عن الاشتغال بها وبأمثالها مما يكون مانعاً عن القيام بعبادة المولى وعن التوجه كما ينبغي إلى أمور العقبى. وقال الطيبي: المعنى لا تتوغلوا في اتخاذ الضيعة فتلهوا بها عن ذكر الله قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله). ... (تحفة الأحوذي)

٢–التحذير من كل شيء يشغل عن الآخرة .

قال تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

وقال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) .

قال ابن كثير : يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، أي صرتم من أهلها .

وقال القرطبي : أي شغلكم المباهات بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى متم ودفنتم في المقابر .

وقال ابن عاشور : أي شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به لأن اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمرٍ مهم .

وقال ابن القيم: كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في التكاثر المذموم.

قوله تعالى : (أَلْهَاكُمُ) أبلغ في الذم مما لو قال : شغلكم ، لعدم التلازم بين اللهو والاشتغال ؛ ذلك أن الإنسان قد يشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاه به ، بينما اللهو ذهول وإعراض .

عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: (يقول ابن آدم مالي مالي قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قال : (يقول العبد مالي مالي ، إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك ، فهو ذاهب وتاركه للناس) رواه مسلم .

وعن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : (لو كان لابن آدم وادياً من ذهب ، أحب أن له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، والله يتوب على من تاب) متفق عليه .

وعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : (يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر) متفق عليه .

وقال الحسن : لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك ، وتحاسب وحدك .

٣-الايتعاد عن كل سبب يرغب في الدنيا ويزهد في الآخرة .

٤-الحذر من فتنة الدنيا .

٤٧٩ – وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ (مَرَّ عَلَيْنَا رسولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نعالِجُ خُصًّا لَنَا، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى، فَنَحنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «مَا أرَى الأَمْرَ إلاَّ أعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ) رواه أَبو داود والترمذي بإسناد البخاري ومسلم، وقال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

==========

(وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا) قَالَ فِي الْقَامُوسِ : الْخُصُّ بِالضَّمِّ الْبَيْتُ مِنْ الْقَصَبِ أَوْ الْبَيْتُ يُسْقَفُ بِخَشَبَةٍ كَالْأَزَجِ ، جَمْعُهُ خِصَاصٌ وَخُصُوصٌ اِنْتَهَى . وَقَالَ فِيهِ : الْأَزَجِ مُحَرَّكَةً ضَرْبٌ مِنْ الْأَبْنِيَةِ . وَالْمَعْنَى نُصْلِحُ بَيْتًا لَنَا . وَفِي رِوَايَةٍ : وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّي **(مَا أَرَى الأَمْرَ إلاَّ أعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ)** أي: ما أَرى الموتَ وَما بَعده مِن القَبرِ والحَشرِ والقِيامةِ إلَّا أسرعَ مِن أنْ يُشيِّدَ الإنسانُ لنفسِه ما يزيدُ عن حاجتِه.

١-الحديث دليل على الزهد في الدنيا ، لأنها قريبة الزوال ، وأيضاً صاحبها يموت وينتقل للآخرة .

٢-الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن يكون اهتمامه بالآخرة أعظم وأكبر من الاهتمام بالدنيا .

٣-إثبات الموت .

٤-التذكير بالموت والآخرة .

٥-قرب الموت ، لأن كل ما هو آت فهو قريب .

٤٨٠ – وعن كعب بن عياض ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وفِتْنَةُ أُمَّتِي: المَالُ) . رواه الترمذي، وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

٤٨١ – وعن أَبي عمرو، ويقالُ: أَبو عبدِ الله، ويقالُ: أَبو ليلى عثمان بن عفان ﷺ: أنَّ النبي ﷺ قَالَ: (لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ في سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الخُبز وَالماء) رواه الترمذي، وقال: «حديث صحيح».

قَالَ الترمذي: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُد سُلَيْمَانَ بنَ سَالِمٍ البَلْخيَّ، يقولُ: سَمِعْتُ النَّضْرَ بْن شُمَيْل، يقولُ: الجِلْفُ: الخُبْز لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ، وقال غَيْرُهُ: هُوَ غَليظُ الخُبْزِ. وقَالَ الهَرَوِيُّ: المُرادُ بِهِ هنَا وِعَاءُ الخُبزِ، كَالجَوَالِقِ وَالخُرْجِ، والله أعلم.

٤٨٢ – وعن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ – بكسر الشينِ والخاء المعجمتين ﷺ أنه قَالَ (أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟) رواه مسلم.

٤٨٤ – وعن كعب بن مالك ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

==========

(**يَقْرَأُ** : (**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**) أي : شغلكم الإكثار من الدنيا، ومن الالتفات إليها عما هو الأَولى بكم من الاستعداد للآخرة .

(**قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي**) أراد النبيّ ﷺ بهذا تفسير هذه الآية الكريمة، فبيّن أن المراد بالتكاثر هو التكاثر في الأموال .

(**وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**) إنكار منه ﷺ على ابن آدم بأن ماله هو ما انتفع به في الدنيا بالأكل، أو اللبس، أو في الآخرة بالتصدّق .

(**إِلَّا مَا تَصَدَّقْت فَأَمْضَيْت**) أَيْ فَأَمْضَيْته وَأَبْقَيْته لِنَفْسِك يَوْمَ الْجَزَاءِ قَالَ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) .

وفي الرواية الثانية (يقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي، إِنَّهُ لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ، مَا أَكَلَ فَأَفَنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِك فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ) فقوله (أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى) بِالتَّاءِ ، وَمَعْنَاهَا اِدَّخَرَهُ لِآخِرَتِهِ ، أَيْ اِدَّخَرَ ثَوَابه .

١-هذه الأحاديث فيها خطر فتنة المال ، وأن المال من الفتن العظيمة للإنسان إذا لم يتق الله فيه .

فالمال فتنة عظيمة، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى، ويحمله أيضاً على الطغيان والبغي.

والمال – أيضاً – فتنة لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة.

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَءاهُ اسْتَغْنَى).

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ).

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)، فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنياً عن الناس.

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

قال الرازي: لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى. (تفسير الرازي).

وفرعون لما أغناه الله وملّكه مصر قال (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ).

وقارون لما أنعم الله عليه قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

وقال ﷺ (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي.

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالاً جحدا نعم الله عليهما.

وقال ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) متفق عليه.

وقال ﷺ (يهرم ابن آدم ويهرم معه اثنتان: الحرص على العمر، والحرص على المال) متفق عليه.

وقال ﷺ (اثنتان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب) رواه أحمد

وقال ﷺ (يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء أخذ المال من حلال أو حرام) رواه البخاري.

٢-قوله ﷺ **(ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه).**

قال ابن رجب: هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم، قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

فالحرص على المال على نوعين:

الأول: شدة محبة المال مع شدة طلبه من جوه المباحة المبالغة في طلبه والجد في تحصيله.

ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له، وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم، فضيّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم.

فالحريص يضيع زمانه الشريف يخاطر بنفسه لتي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره.

قيل لبعض الحكماء: إن فلاناً جمع مالاً، فقال: فهل جمع أياماً ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئاً

كان عبد الأحد بن زيد يحلف بالله، لحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندي من أعدى أعدائه.

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: الرزق مقسوم، والحريص محروم، ابنَ آدم، إذا أفنيتَ عمرَك في طلب الدنيا، فمتى تطلب الآخرة.

إذا كنت في الدنيا عن الخيرِ عاجزاً ... فما أنت في يومِ القيامة صانعُ.

قال بعض السلف: إذا كان القدر حقاً فالحرصُ باطلٌ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحدٍ عجزٌ، وإذا كان الموت لكلِ أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

الثاني: أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة.

قال تعالى (ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا).

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال (اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

٣-والمال محبوب للإنسان .

قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ).

وقال تعالى (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا).

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ (لَوْ أنَّ لابنِ آدَمَ وَادِياً مِنْ ذَهَبٍ أحَبَّ أنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) مُتَّفَقٌ عليه.

وعنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ).

٤- غوائل المال:

أولاً: أنه يجر إلى المعاصي غالباً، لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعث داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها.

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهى هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

ثانياً: أنه يجر إلى التنعم في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات.

ثالثاً: أنه يلهيه عن ذكر الله، وهذا الدال العضال، فإن صاحب المال يمسي ويصبح متفكراً في ماله وحفظه وزيادته.

رابعاً: حذر الله الاشتغال بالمال- ولو كان حلالاً- عن طاعة الله وعن ذكره وشكره.

كما قال تعالى (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

وقال سبحانه (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا).

خامساً: فتنة المال من الفتن التي خشيها النبي ﷺ على أمته.

قال ﷺ (والله، لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم).

سادساً: ذم الله ورسوله عبد المال الذي إذا أعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُون).

سابعاً: وهذا المال إن لم يستخدمه صاحبه في طاعة الله وينفقه في سبيله، كان وبالاً وحسرة عليه.

قال تعالى (فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُون).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُون).

ثامناً: وبعض الناس يغلط، ويظن أن من رُزِق مالاً كثيراً، فإنه قد وفق، وهو دليل على محبة الله له! والأمر ليس كذلك، فإن الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، وقد ذكر الله هذا عن الإنسان، وأخبر أن الأمر ليس كما ظن.

قال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ).

وقال تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلا).

٥-قوله (**وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**) الحديث دليل على أن مال الإنسان حقيقة : هو ما قدمه من عمل صالح وصدقة.

قال ابن بطال: فيه التحريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوه البرّ والقرب لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يخلفه يصير ملكاً للوارث.

وعن عائشة رضي الله عنها : أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي.

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

٦-حث على بذل ما يمكن تقديمه من المال في وجوه الخير لينتفع به في الآخرة.

٧-فيه الإشارة إلى أن النفوس جُبِلَت وفُطِرَت على حُبِّ المال.

٤٨٥ – وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ (نَامَ رسول الله ﷺ عَلَى حَصيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا في الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

==========

١-الحديث دليل على الزهد في الدنيا ، لأنها قصيرة زائلة .

قال بعض العلماء: فتأمل هذا المثال، ومطابقته للواقع سواء، فإنها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً، ولا يتخذها قراراً، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

٢-الدنيا دار نفاد لا محل إخلاد ، ومركب عبور لا منزل حبور ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيها يموت ، وخيرها يفوت .

أحلام نومٍ أو كظلٍ زائل إن اللبيبَ بمثلها لا يخدع .

فهي إذاً سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء .

قال عمر بن عبد العزيز في وصفها : بقاؤها قليل ، وغنيها فقير ، وشابها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها فالمغرور من اغتر بها ، الركون إليها خطر ، والثقة بها غرر ، كثيرة التغير ، سريعة التنكير ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، عيشها نكد ، وصفوها كدر ، والمرء منها على خطر ، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرا ، وإن سرّت يوماً ساءت أشهراً وأعواماً ، غناها مصيره إلى فقر ، وفرحها يؤول إلى ترح ، وهيهات هيهات أن يدوم بها قرار .

وكان الإمام أحمد يقول : يا دار ، تخربين ويموت سكانُك .

قد نادتِ الدنيا على نفسِها لو كان في العالَمِ من يسمعُ ... كم واثقٍ بالعمر أفنيتهُ وجامعٍ بدَّدْتُ ما يَجمعُ .

قال تعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

قال ابن رجب : والمتاع هو ما يَتمتع به صاحبُه برهةً ثم ينقطع ويفنى ، فما عيبت الدنيا بأبلغ من ذكر فنائها وتقلب أحوالها ، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها ، فتتبدل صحتها بالسقْم ، ووجودُها بالعدم ، وشبيبتُها بالهرم ، ونعيمها بالبؤس ، وحياتها بالموت ، وعمارتها بالخراب ، واجتماعها بفُرقة الأحباب ، وكلُّ ما فوقَ التراب ترابُ . ا.هـ

قال موسى عليه السلام: الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤمّلون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقد قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنّه قال (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وكان النَّبيُّ ﷺ يقول (مالي وللدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها).

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا له: إنَّا نرى بيتَك بيتَ رجلٍ مرتحلٍ، فقال: أمرتحلٌ؟ لا، ولكن أُطْرَدُ طرداً.

وكان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يقول: إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

قال بعضُ الحكماء: عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا مولية عنه، والآخرة مقبلةٌ إليه، يشتغلُ بالمدبرة، ويُعرِض عن المقبلة.

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته: إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظَّعَن، فكم من عامرٍ موثَّق عن قليلٍ يَخْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُغتَبِطٍ عما قليل يَظعَنُ، فأحسنوا – رحمكم الله – منها الرِّحلة بأحسن ما بحضرتكم مِن النقلة، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التقوى.

٤٨٦ – وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (يدْخُلُ الفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمائَةِ عَامٍ). رواه الترمذي، وقال: «حديث صحيح».

٤٨٧ – وعن ابن عباس وعِمْرَانَ بن الحُصَيْنِ رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قَالَ: «اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ في النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». متفقٌ عَلَيْهِ من رواية ابن عباس، ورواه البخاري أيضًا من رواية عِمْرَان بن الحُصَيْن.

٤٨٨ – وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قَالَ (قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِم إِلَى النَّارِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

وَ «الجَدُّ»: الحَظُّ والغِنَى. وقد سبق بيان هَذَا الحديث في باب فَضْلِ الضَّعفَة.

==========

(**يدْخُلُ الفُقَرَاءُ الْجَنَّة**) جاء عند مسلم في صحيحه : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً) رواه مسلم .

١-الحديث دليل على أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بهذه المدة .

٢-وقد ذكر غيرُ واحد من أهل العلم أن المعنى في دخول الفقراء قبل الأغنياء الجنة: هو خِفَّةُ الحساب عليهم؛ فليس عندهم من الأموال التي تقتضي الحساب عليها؛ من أين اكتسبوها، وفيمَ أنفقوها، كما ما عند الأغنياء؛ فلهذا خَفّ حسابُهم، وقصُرت مدته، وسبقوا الأغنياء إلى الجنة.

وهذه فضيلة من وجه واحد، وهو خِفة حساب الأموال، وما يتعلق بها؛ لكن لا يلزم أن يكونوا أفضل من أهل الأموال مطلقا، ومن كل وجه، فلا يلزم أن تكون منزلتهم في الجنة، أعلى من منازل أهل الأموال، بل كلٌّ بحسب عمله، وما لَهُ عند الله؛ وهذا هو الأمر الأهم.

قال ابن تيمية : فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم، والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ... ثم إذا حوسب أحدهم، فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير، كانت درجته في الجنة فوقه ، وإن تأخر في الدخول، كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم عكاشة بن محصن، وقد يدخل الجنة - بحسابٍ - من يكون أفضل من أحدهم .

وقال ابن القيم رحمه الله : الفقراء يتقدمون في دخول الجنة لخفّة الحساب عليهم، والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب.

ثم إذا حوسب أحدهم، فإن كانت حسناتُه أعظم من حسنات الفقراء، كانت درجتُه في الجنة فوقَه، وإن تأخر في الدخول .

٣-أن فتنة السراء قد تكون أعظم من فتنة الضراء .

قال ابن تيمية : غالب الخلق إنما يَسلمون من فتنة الفسوق والعصيان إذا لم يبتلوا بكثرة المال .

ولهذا أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون.

٤-استدل بهذه الأحاديث من قال : الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

لقول الأول: أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر.

قال ال الحافظ : وصرح كثير من الشافعية بأن الغني الشاكر أفضل.

أ-لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ. وَيُعْتِقُونَ وَلا نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ ، وَتَسْبِقُونَ مَنْ بَعْدَكُمْ. وَلا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ ، إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟ قَالُوا: بَلَى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ: ثَلاثاً وَثَلاثِينَ مَرَّةً. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِمَنْ فَضَّلَ الْغَنِيّ الشَّاكِر عَلَى الْفَقِير الصَّابِر، وَفِي الْمَسْأَلَة خِلَاف مَشْهُور بَيْن السَّلَف وَالْخَلَف مِنْ الطَّوَائِف. وَاَللَّهُ أَعْلَم.

ب-ولقوله ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى) متفق عليه .

ج-ولقوله ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد.

د- ولحديث سعد. قال: قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ) رواه مسلم.

قال ابن حجر: وهو دال لما قلته سواء حملنا الغني فيه على المال أو على غنى النفس فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب.

هـ- أن الغني الشاكر نفعه متعدي، بخلاف الفقير الصابر فنفعه قاصرٌ على نفسه، فيكون الأول أفضل من الثاني كما في نظائرها من المسائل.

القول الثاني: الفقير الصابر.

لقوله ﷺ (يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسمائة عام).

ولقوله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء) رواه مسلم.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن من كان تقياً فهو أفضل.

قال ابن تيمية: قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟

فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر .

وقالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، وان استويا في ذلك استويا في الفضيلة وهذا أصح الأقوال، لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال الله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما).

وقال القرطبي: ذهب قوم إلى تفضيل الغني، لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز، قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير، لأن الفقير تارك والغني ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة.

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين قال الماوردي: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال، وأن خيار الأمور أوساطها.

وقال ابن هبيرة الوزير الحنبلي: ولو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضاء الله ولو لم يكن في الغنى إلا أنه باب سخط الله، لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضي عن الله في تقديره، وإذا رأى الغني تسخط بما هو عليه، وذلك يكفي في فضل الفقير على الغني.

٥-قوله ﷺ **(وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ)** .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن أقل ساكني الجنة النساء) رواه البخاري .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء) متفق عليه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (رأيت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن" قيل: أيكفرن بالله؟ قال: "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط) متفق عليه .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للنساء (تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم ..) رواه مسلم .

في هذه الأحاديث ما يفيد أن النساء أقل ساكني الجنة وأكثر ساكني النار.

فإن قيل :

ما الجواب عن حديث : عن أبي هريرة قال : قال ﷺ (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دُري في السماء **لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان** يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب) متفق عليه .

وفي لفظ للبخاري (لكل امرئٍ زوجتان من الحور العين ..) .

فالجواب :

قيل : إن النساء من بني آدم في الجنة أقل من الرجال ، وأما إذا انضم إليهن الحور العين فإنَّهن بلا شك أكثر من الرجال .

وإلى هذا ذهب القرطبي وابن القيم عليهما رحمة الله.

واستدلوا بما تقدم من حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: "إن أقل ساكني الجنة النساء".

وكذلك استدلوا بالأحاديث التي فيها أن النساء أكثر أهل النار.

وأجابوا عن قوله ﷺ (لكل امرئٍ منهم زوجتان) بأن المراد بالزوجتين: أي من الحور العين .

واستدلوا على ذلك. مما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: للرجل من أهل الجنة زوجتان من حور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب .

وقيل : النساء في الجنة أكثر من الرجال .

وممن ذهب إلى هذا أبو هريرة رضي الله عنه، والقاضي عياض ، وابن تيمية ، والعراقي عليهما رحمة الله .

للحديث السابق (لكل امرئٍ منهم زوجتان) .

فقالوا: إن المراد بالزوجتين: أي من نساء الدنيا.

قال العراقي : الزوجتان من نساء الدنيا والزيادة على ذلك من الحور العين .

واستدلوا على كون المراد بالزوجتين في الحديث السابق من نساء الدنيا بالأحاديث التي ورد فيها أن المؤمن يكون له في الجنة العدد الكثير من الحور العين، كقوله ﷺ: للشهيد عند ربه ست خصال .. "ثم ذكر منها" ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين...

فقالوا: إن هذا الحديث وما في معناه يدل على أن المؤمن له في الجنة أكثر من زوجتين من الحور العين وعلى هذا تكون الزوجتان -في حديث أبي هريرة- منَ نساء الدنيا. .

وأجاب أصحاب هذا القول عن قوله ﷺ : إن أقل ساكني الجنة النساء .

أن قلتهن هذه إنما هي في أول الأمر عندما تكون أكثر النساء في النار، وأما بعد خروجهن بالشفاعة ورحمة الله تعالى فإنهن يكن أكثر من الرجال .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: فأما عصاة الموحدين، فأكثر من يدخل النار منهم النساء، كما في الصحيحين، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ ، أنه قال في خطبة الكسوف .

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون هذا في وقت كون النساء في النار، وأما بعد خروجهن بالشفاعة، وبرحمة الله تعالى حتى لا يبقى فيها أحد ممن قال: لا إله إلا الله، فالنساء في الجنة أكثر، والله أعلم، وحينئذ يكون لكل واحد منهم زوجتان من نساء الدنيا، وأما الحور العين فقد يكون لكل واحد منهم الكثير منهن . (التذكرة)

وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ،

٦-قوله (**وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ**) هذا الخبر ليس فيه إلا حبس الأغنياء، وذلك لطول الحساب، وليس فيه اثبات أنهم من أهل النار؛ بل فيه إشارة كذلك إلى أن "حبس" أهل الجد (المال والثراء): إنما هو حبس للحساب، وليس للعذاب، ولذلك قال: (وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ) ففرق بين "أصحاب الجد"، الذين هم مؤخرون لأجل الحساب عما كان عندهم من الحظوظ والنعم، وبين "أصحاب النار" الذين هم أهلها؛ فهؤلاء قد أمر بهم إلى النار.

٤٨٩ – وعن أَبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

١–قوله (**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ** ...) وإنما كان أصدق كلمة؛ لأنه موافق لأصدق الكلام، وهو قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) .

قال النووي : الْمُرَاد بِالْكَلِمَةِ هُنَا الْقِطْعَة مِنْ الْكَلَام ، وَالْمُرَاد بِالْبَاطِلِ الْفَانِي الْمُضْمَحِلّ .

وقال القرطبيّ رحمه الله: الباطل هنا أراد به الْمُضْمَحِلّ، المتغير، الذي هو بصدد أن يهلك، ويتلف، وهذا نحو من قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ولا شك في أن هذه الكلمات أصدق ما يتكلَّم به ناظمٌ، أو ناثر؛ لأن مقدمتها الكليَّة مقطوعٌ بصحتها، وشمولها عقلًا ونقلًا .

٢–الحث على الزهد في الدنيا ، لأنها فانية والآخرة باقية .

فالدنيا بلغة فانية، ومتعة زائلة، وظلال آفلة، وسحابة حائلة، ولذة ذاهبة، وفتنة راجفة.

إن الدنيا أيام قلائل، وظل زائل، وليالٍ قصار، وساعة معدودة، وأنفاس محدودة، ثم بعدها حسرات مترادفة، وأحزان متضاعفة، يُتمتَّع بها ثمَّ تفنى، وتذهب بعد وقت قريب، ثم لا يبقى إلا التحسُّر الوبيل.

قال ابن رجب : فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد ﷺ يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

وقال رحمه الله : قال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

وقال تعالى (قل مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) قال القرطبي: وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له.

وقال الرازي : ... وإنما وصفه الله تعالى بالقلة؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالآفات والحسرات، ثم إنه بالعاقبة ينقطع وينقضي، وكيف لا يكون قليلاً؟! وقد كان معدومًا من الأزل إلى الآن، وسيصير معدومًا من الأزل إلى الأبد، فإذا قابلت زمان الوجود بما مضى، وما يأتي وهو الأزل والأبد، كان أقل من أن يجوز وصفه بأنه قليل .

٣–تسلية لأهل الحق مما حرموه من الدنيا، وتسلية لمن كانوا في الدنيا في فقر وشدة، وتصبرهم على تلك الشدة.

٤–أن أقل القليل من الجنة خير من الدنيا، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ (موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) وقرأ: (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .